حبيبُ جاماتي

تحْتَ سَماءِ المغربُ

الكتاب: تحْتَ سَماءِ المغربُ

الكاتب: حبيبُ جاماتي

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

جاماتي، حبيبُ

تحْتَ سَماءِ المغربُ / حبيبُ جاماتي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٨٦ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٧ – ٠١٤ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٩٥١٧ / ٢٠٢٠

تحْتَ سَماءِ المغربُ





إهداء

إلى المجاهدين الأحياء في بلدان المغرب العربي، لكى يذكروا المجاهدين الأموات، الذين حرروا الأوطان الصغيرة في هذا الجزء من الوطن الكبير، وصانوا كرامتها، ودفعوا عنها الأذى، وأخلصوا لها في السراء والضراء، وكانوا نبلاء شرفاء في حياتهم الخاصة والعامة، أهدي هذه المجموعة من أقاصيص البطولة والفداء، والحب والوفاء، المستقاة من هوامش التاريخ قديمه وحديثه.

تصدير

«تحت سماء المغرب» كتاب يضم مجموعة من الأقاصيص التي وقعت حوادثها في البلاد العربية الغربية: المغرب الأقصى أو مراكش، والجزائر، وتونس –أو القطر المغربي والقطر الجزائري والقطر التونسي– كما كان يحلو للعرب أن يسموا تلك الجهات التي إلتحقت بإمبراطوريتهم المترامية الأطراف.

ففي هذا الكتاب إذن عشرون قصة وقعت حوادثها في المغرب العربي، وفي حقبات مختلفة من التاريخ القديم والحديث، أي قبل الميلاد وبعده، وقبل الفتح الإسلامي وبعده،

وتاريخ المغرب العربي عريق مجيد، ولشعوبه مواقف مشرفة على كر الأجيال، في جميع الميادين والمجالات. وفي هذه الأقاصيص التي يضمها كتاب «تحت سماء المغرب» بين دفتيه، حوادث مما أهمله التاريخ، في عهود تغير فقى خلالها الحكام وتطورت الشعوب. فقديمًا «عرف الشمال الأفريقي غزو جماعات جائرة من الشرق برًا أو من الشمال بحرًا». وتركت كل جماعة منها في البلاد التي غزتها أثرًا من حضارتها، أو رواسب من ثقافتها، حتى جاء الفتح الإسلامي العربي، فصهرت كل الحضارات في بوتقة حضارته وأفرغت كل الثقافات في قالب ثقافته. وحدث في تلك البقاع ذلك الإمتزاج العجيب الذي لم يذكر التاريخ مثيلًا له في صفحاته، إلا فيما يتعلق بالعرب الغزاة الفاتحين،

وبالنسبة إلى الشعوب التي دخلت في طاعتهم، أو إنضمت إليهم بدون حرب ولا قتال، فما مرت الأيام والأعوام، حتى كان كل عنصر غريب قد ذاب في العنصر العربي، وحتى كانت البلدان المغربية كلها قد إكتسبت ذلك الوجه العربي الواضح الناصع، اللي عرفت به فيما بعد وحتى أيامنا هذه، والذي بقي محتفظًا برونقه، وخصائصه، وخواصه، وميزاته، وحيوته، بالرغم مما تعاقب على الشمال الإفريقي من كوارث ومحن وتقلبات، على أيدي حكام ضالين من أبنائه، أو طغاة مستبدين من الأغراب المستعمرين...

واليوم، وقد رفرفت أعلام الحرية وخفقت رايات الإستقلال في فضاء الشمال الإفريقي، وهو ما درج العرب المشارقة والمغاربة على تسميته بالمغرب العربي –لأنه يقابل من الناحية الإفريقية المشرق العربي الممتد في الناحية الآسيوية– فإن الشعوب التي تحررت ونبذت الخمول والإستكانة، وإنطلقت في ميادين الرقي والمعرفة تصول وتجول، فإن الحديث عن التاريخ وما دونه من وقائع الماضي البعيد والقريب، يثير في النفس الشجون، ويحيي في الصدر الآمال، ويقوي عزائم العاملين في سبيل حاضر جدير بذلك الماضي، ومستقبل أفضل من الحاضر والماضي.

وأملي أن تجد هذه المجموعة الجديدة قبولًا حسنًا لدى القارئ، مثل سابقاتها، والله ولي التوفيق.

حبيب جاماتي

زيتونة على قبر

وإنتشـرت زراعـة الزيتـون وسميـت الـبلاد
بسببه «تونس الخضراء».

على الشرفة الفسيحة، المطلة على الميناء، جلس «أزوداس»، كبير الكهنة في هياكل «صور» وحوله أفراد أسرته جميعًا: إبنته الكبيرة وزوجها، وإبنته الصغيرة التي لم تتخذ لها بعلًا بعد، وأخوه وأولاد أخيه... أما زوجة الكاهن فقد ماتت يوم رأت إبنتها الصغيرة النور..

وكان الناظر إلى الميناء من مكان مرتفع –مثل شرفة الدار التي يقيم فيها أزوداس وأسرته– يدرك لأول وهلة أن أسطولًا من السفن المعدة للرحلات الطويلة على أهبة الإبحار إلى بعيد، للإتصال بإحدى المستعمرات الفينيقية المنتشرة على سواحل البحار، أو لإنشاء مستعمرة جديدة في مجاهل الأرض.

وكان أزوداس، من ناحيته، قد أعد العدة للإبحار على ظهر إحدى سفن الأسطول، مع إبنته الصغيرة «أسماتا» تلبية لدعوتين: دعوة الكهنة في هياكل «قرطاجة» الموجهة إليه، ودعوة القائد «براجليون» خطيب إبنته، الموجهة إلى الفتاة...

ولم يكن في وسع الإثنين أن يرفضا الدعوتين: فكبير كهنة «صور»

كان الرئيس الأعلى للكهنة جميعًا في الهياكل التي شيدها الفينيقيون في مستعمرتهم الجديدة قرطاجة على ساحل إفريقية الشمالي. وإذا كانوا يلحون عليه بالذهاب إليهم، فما ذلك إلا لأنهم في حاجة ماسة إلى إرشاداته ونصائحه وثاقب أفكاره. أما هي، الفتاة أسماتا، فإنها قد رضيت مختارة بأن تربط حياتها بحياة ذلك القائد الشاب براجليون، الذي إرتقى بسرعة مدهشة مدارج الشهرة والمجد، في الحروب التي خاض غمارها. وإذا كان يلح عليها بأن توافيه إلى قرطاجة، فما ذلك إلا لأنه مضطر إلى البقاء هناك، حيث تدعوه المصلحة: مصلحته ومصلحة الوطن...

كانت «اليسار» ملكة صور قد أبحرت مع أسطول لجب هاربة من فينيقية على أثر مأساة عائلية دموية، في القرن التاسع قبل الميلاد، فتبعها عدد كبير من الأعوان والأنصار، ونزلت ساحل البحر المتوسط على مسافة بعيدة من الموانئ المصرية والليبية.

وإعتزمت اليسار –التي يسميها اليونانيون «ديدون»– أن تنشئ في ذلك الموضع مستعمرة جديدة، ونفذت عزمها بلا إبطاء فنبتت من الأرض، على الرمال وبين الصخور، مدينة أطلقت عليها الملكة الشريدة إسم «قارت هداتش» وهما كلمتان فينيقيتان معناهما «المدينة الجديدة».

وتداولت الألسنة هذا الإسم من بلد إلى بلد جيلًا بعد جيل، فأصبح «قرطاجة» وهي المدينة التي قدر لها أن تهز الإمبراطورية الرومانية هزًا وتزعزع أركانها وتدفع بها في وقت من الأوقات إلى حافة الهاوية، بقيادة هانيبال وأسرته. ولكن الرومانيين تمكنوا في النهاية من تخريبها.

قامت المدينة العظيمة إذن على ذلك الساحل الأفريقي، وإمتدت فيها الشوارع وإنتظمت الدور والقصور، وإنتقلت إلى قرطاجة عبادة آلهة فينيقية: بعل، وملكارت، وعشتروت، وأدونيس. وإنتقلت مع طقوس العبادة تقاليد الفينيقيين وعاداتهم وأساليبهم في الحروب والغزوات والتجارة والصناعة والزراعة. وبعد أن زالت أسباب الجفاء الأولى بين مؤسسي قرطاجة والوطن الذي جاءوا منه، توثقت الروابط بين المدينة الزاهرة وقواعد الفينيقيين على سواحل لبنان في شرق البحر المتوسط.

وكان القرطاجيون، الذين إنصرفوا على الخصوص إلى الأعمال والفنون الحربية يعتمدون على الوطن الأول في كل ما يتعلق بالشئون الدينية والتجارية...

ومما كانوا يستوردون من فينيقية بكميات كبيرة، زيت الزيتون، الذي كانوا يحتاجون إليه لجيوشهم وهياكلهم في آن واحد للقتال وللعبادة.

ولما أعد الكاهن الأكبر أزوداس نفسه للرحيل من صور إلى قرطاجة كان عليه أن يسهر، في خلال رحلته، على شحنة هائلة من زيت الزيتون أعدت خصيصًا في معاصر لبنان لتموين قرطاجة ومصانعها وهياكلها.

ولكن شيئا آخر كان يشغل في آن واحد بال الكاهن ويحمله على التفكير: كان أزوداس شديد الإهتمام بإتخاذ الحيطة لنفسه، لكي يتمكن من المحافظة على العادة القديمة التي توارثها أفراد أسرته أبًا عن جد، منذ أن وقفوا أنفسهم لخدمة الآلهة في المعابد. وتلك العادة أصبحت من التقاليد المقدسة لم يشذ عنها أحد من الكهنة الذين خرجوا من تلك الأسرة العريقة..

قال أزوداس:

– هذه آخر مرة يلتئم فيها شملنا في مجلس واحد، أيها الأعزاء، قبل أن نفترق –وقد يكون الفراق أبديًا لا لقاء بعده– غدًا، عند الفجر، سنبحر من هذا الميناء إلى قرطاجة، أنا وأسماتا. وقد زودتكم بوصاياي فأرجو أن تكونوا عليها أمناء. وأذكركم مرة أخرى بما أوصيتكم به بإلحاح فيما يتعلق بأغراس الزيتون.

وهنا قال أخو أزوداس:

– أرسلت بنفسي، أيها الأخ الحبيب عشرة أغراس من أجود أنواع الزيتون إلى ظهر السفينة التي تقلك غدًا، وسأوافيك في المستقبل بغيرها، كلما أقلعت سفينة إلى قرطاجة.

فأجاب أزوداس مرتاحًا:

– أشكرك يا أخي: فأنا حريص على أن تزرع شجرة زيتون على قبري، كيلا يختلف هذا القبر في شيء عن قبور من سبقوني إلى العالم الآخر. من أفراد أسرتنا الكهنة. فقد غرست زيتونة على قبر كل منهم، بحيث أصبحوا الآن ينامون نومهم الأخير في غابة من الزيتون في ظاهر هذه المدينة، وخلف أسوار صيدون، وفي سفح الجبل عند مصب نهر أدونيس، بجوار بيبلوس! وشجر الزيتون لا ينبت في حقول قرطاجة وسهولها. ولهذا، أردت أن أحتاط للمستقبل، وأن آخذ معي من أغراس الزيتون ما يجعله في متناول اليد، يوم أرحل عن هذا العالم فأجد غرسًا

منها يزرع على قبري، عملًا بما درجنا عليه من قديم الزمان. الزمان..

وبعد سكوت قصير قال أزوداس:

– لست أدري كيف أن إخواننا هناك لم يفكروا بعد في سد هذه الثغرة في ثروتهم الزراعية، ولم يعمدوا إلى زراعة أشجار الزيتون في بلادهم، لإستخراج زيتها، وإستخدام أعوادها وأوراقها، كما نفعل.. فإنهم يعتمدون علينا في تمويلهم بالزيت والزيتون، ولا يعنون قط بزراعة الشجرة الجميلة التي تغطي سفوح جبالنا وسهولنا.

وقالت أسماتا:

–أبي... قبل أن تزرع غرس الزيتون على قبرك بعد عمر طويل مديد، سأزرع واحدًا منها، بيدي هذه، في حديقة الدار التي ستقيم فيها، يوم تحتفلون هناك، بزفافي... وسيكون غرس الزيتون هذا تاريخًا لزواجنا، براجليون وأنا!

ووافق الجميع على هذه الرغبة التي أبدتها الفتاة، وقضوا وقتهم في تلك الليلة المقمرة في تبادل الأحاديث، حول عميدهم الكاهن الأكبر لتوديعه قبل الرحيل الذي قد لا يلتقون بعده.

قوبل أزوداس في قرطاجة بمظاهر التكريم والتعظيم، وإستبشر الناس خيرًا بقدومه، بالنظر إلى ما كان يتمتع به من شهرة واسعة وسمعة طيبة، وإلى الخلافات المستحكمة بين كهنة الهياكل في قرطاجة، والتي لم يكن هناك بد من إزالتها، حفظًا لكرامة الآلهة وصيانة لطقوس العبادة.

وقوبلت أسماتا، الفتاة الجميلة اللطيفة، بمظاهر الترحيب والفرح، من حبيبها القائد الشاب براجليون. الذي كان على أهبة السفر مع الجيش القرطاجي في حرب جديدة، وإلى غزوة توسع شقة الممتلكات القرطاجية بإضافة رقعة من الأرض إليها.

وفي بضعة أيام فقط، تمكن أزوداس الحكيم الحليم من إعادة الوئام إلى هياكل الآلهة، وإزالة أسباب الخصام من نفوس الكهنة فتنفس الناس الصعداء ولهجت ألسنتهم بالثناء على رسول السلام الذي أوفدته إليهم «صور» الفينيقية.

وأقام القرطاجيون عرسًا لإبنة الكاهن لم تشهد مدينتهم مثله من قبل. فقد إشترك فيه السكان جميعًا: الكهنة إكراما لكبيرهم أزوداس والجنود إكرامًا للقائد براجليون، والشعب لأنه مرح دائم الرغبة في إغتنام الفرص ليرقص ويغنى ويأكل ويشرب على حساب الأغنياء بين حرب وضعت أوزارها، وحرب لم تبدأ بعد!

وبعد زفاف أسماتا إلى القائد براجليون نفذت الفتاة ما قررته في ميناء صور، يوم إلتأم شمل الأسرة على شرفة الدار، فزرعت غرس زيتونة صغيرة في حديقة بيتها الجديد، أمام الباب. إبقاء لذكرى اليوم الذي ربطت فيه حياتها بحياة الرجل الذي إختارها زوجة وإختارته زوجًا.

ولم تكن أسماتا تعلم، وهي تغرس الزيتونة، أنها تغازل الموت وتدعوه لزيارة الدار.

فقد ذهب براجليون إلى الحرب بعد زواجه ببضعة أيام.

ولم يعد من الحرب!

فقد هبت عاصفة هوجاء على السفن التي نقلت تلك الحملة القرطاجية إلى جزيرة «مالطة» وكانت في ذلك العهد ملكًا للفينيقيين. وكان على الحملة أن تنطلق من تلك الجزيرة إلى القارة الأوربية شمالًا.

ولكن الأقدار شاءت غير هذا، فحالت العاصفة دون إستمرار الحملة في طريقها وأغرقت منها ثلاث سفن–منها السفينة التي كان يقودها براجليون.

غرق القائد ولكن رجاله تمكنوا من إنتشال جثته من اليم، فحملوها إلى قرطاجة حيث دفنت في إحتفال عسكري مهيب.

ورادت عروس الميت التي حل بها المصاب القاسي ولم تنعم بحبها أن يدفن زوجها في حديقة الدار، أمام الباب، بجوار الزيتونة الصغيرة التي غرستها بيدها يوم زفافها!.

وكان لها ما أرادت.

وبعد أن وارى الجنود قائدهم التراب. ألقت أسماتا بنفسها على الضريح وإستسلمت للبكاء والنحيب.

وبين يدي أبيها الكاهن الأعظم، الذي حملها الى داخل الدار وقلبه الحزين يكاد ينفجر في صدره، تمنيت العروس الأرملة قائلة:

– أبي... جئنا بأغراس الزيتون لكي نؤمن زرعها على قبور الأسرة... وما كنا نظن أن أول قبر نزرعها عليه سيضم سعادتي وهنائي!

غير أن حزن الفينيقية الحسناء كانت له نهاية–فلكل حزن نهاية، حتى لو كان حزن العروس المحبوبة على عريسها المحبوب.

كانت أسماتا في حوالي العشرين من العمر لما تزوجت وترملت في شهر واحد.

ولما بلغت الثلاثين، كانت زوجة لإبن عمها، الذي وافاها من صور، وأما الأطفال أصحاء أقوياء.

ومات أبوها الكاهن الأعظم أزوداس، فدفن في الحديقة أيضًا، بجوار القائد براجليون، وغرست أسماتا على قبره شجرة زيتون أخرى عملًا بتقاليد الأسرة!

وكانت أغراس الزيتون التي جاء بها الكاهن معه، والتي أرسلت اليه فيما بعد من فينيقية، قد وزعت على الحدائق والبساتين والمزارع، في قرطاجة وحولها، فإنتشرت زراعة الزيتون منذ ذلك الوقت في تلك البقعة من الأرض الأفريقية.. وإسم تلك البقعة اليوم «تونس».

وبفضلها إستحقت هذه البلاد الجميلة الإسم الذي لازمها منذ أجيال، بعد أن دالت دولة القرطاجيين، وتتابع الغزاة والفاتحون جيلًا بعد جيل: «تونس الخضراء! ».

الموت أو العار

تناولت الملكة السم من يد حبيبها وتجرعته تجنبًا للعار. ولكنها أخذت على الحبيب عهدًا بأن ينقد وطنه من الحكم الأجنبي..فإنقلب الخائن وطنيًا متطرفًا بفضل الحب!..

مرت «سوفونسيه» على هذه الأرض مرور الشهب المارقة في الفضاء. وتناولها المنجل قبل الأوان سنبلة لم يحن بعد وقت حصدها. فماتت في ريعان الشباب، ولكن بعد أن دونت إسمها في سجل التاريخ بأحرف من دم ونار...

كان «هانيبال» بطلًا عظيمًا بين الأبطال العظماء. ألقت إليه «قرطاجة» مقاليد أمورها فنازل أعداءها الرومانيين وقهرهم في الميادين وطاردهم في مختلف الأقطار والأمصار، بجيشه المظفر، مطاردة الثعبان لبغاث الطيور، وأوشك أن يستولى على عاصمة ملكهم لو لم يداخله الغرور شأن العظيم تدلله الأقدار وتغالي في تدليله!

وكان لهانيبال أخ يدعى «أسدر بعل» أصلي الرومانيين أيضًا، من بعد أخيه، حربًا حامية، وسار في الطريق الذي سار فيه أخوه العظيم من قبل...

وسوفونسيه، موضوع هذه القصة، إبنة أسدر بعل، رأت النور عام

٢٢٥ قبل الميلاد، ونشأت في كنف أبيها الذي لقنها مبادئ الوطنية الصحيحة والإخلاص للعشيرة والتفاني في سبيل قرطاجة وسيادتها ومجدها.

بلغت الرابعة عشرة من العمر فأحبها الضابط القرطاجي «ماسينيسا» وكان جميلًا مقدامًا. فقابلت الفتاة حبه بمثله وتعاهد العاشقان على الزواج.

لكن الظروف حالت دون إتمام رغبتهما وتحقيق أملهما، لأن الرومانيين إكتسحوا إفريقية الشمالية وزحفوا على قرطاجة ظافرين. فعقد العظماء والقواد مجلسًا برئاسة أسدر بعل لإتخاذ التدابير اللازمة أمام الخطر الداهم.

وإستقر رأيهم على التحالف مع «صفاقس» ملك موريتانيا، وهو الجار الوحيد في إفريقية القادر على الوقوف في وجه الغزاة وفي طريق جيشهم الزاحف.

عرضوا عليه المحالفة وبسطوا له آراءهم، فقبل الرجل أن يحالفه ويضع يده في أيديهم لصيد الغزاة الفاتحين، ولكنه وضع لذلك شرط واحدًا، وهو إعطاؤه الأميرة الفاتنة سوفونسيه زوجة له...

كان صفاقس شيخًا مسنًا، فجعلت الفتاة تنتحب وتندب حظها لكن والدها أقنعها بقبول الشيخ زوجًا لها، قائلًا أن سلامة الوطن في يدها.

وتغلب حب الوطن في قلب الفتاة على عاطفة الغرام. فكاشفت خطيبها بالأمر، وصدمته بالحقيقة المرة. ولكنها أقسمت له أنها أحبته وتحبه، وسوف تظل على حبها ولن تحب سواه.. غير أن الواجب المقدس، الواجب

نحو الوطن... نحو قرطاجة المهددة... يحتم عليها أن تضحي بحبها.

غضب ماسينيسا وحقد على بني وطنه الذين سلبوه السعادة والهنا في الحب. وبعد أن قضى الأمر وزفت الأميرة الجميلة الشابة إلى الملك صفاقس الشيخ، هجر الضابط العاشق قرطاجة، وتاه بعض الوقت حائر لا يستقر على رأي، ثم إنضم إلى أعداء وطن، وحارب في صفوف الرومانيين!

فظن القائد الروماني إلى الفوائد التي يمكن أن يجنيها جيشه من وجوه ذلك الثائر الناقم في صفوفه. فعهد إليه بقيادة الفرقة الزاحفة على مدينة «سيرتا» ومعقل خصمه في الحب، الملك صفاقس!

وكان الملك قد جمع جموعه وحشد جيشًا لجباسير جزءًا منه لشد أزر القرطاجيين، وإعتصم هو مع الجزء الثاني، وهو مؤلف من خير جنوده، في عاصمته المنيعة. وأقامت زوجته سوفونسيه بجانبه، تشجع المقاتلين وتواسي الجرحى.

مشى القائد الروماني العام –سيبيو الشهير بالإفريقي– بجيشًا إلى قرطاجة وتقدم ماسينيسا إلى سيرتا فخرج صفاقس للقاء خصمه. ونشب القتال بين الفريقين، فغلب الملك الشيخ على أمره، وإنهزم في الميدان، فتراجع إلى داخل الأسوار ليحتمي بها...

وضرب ماسينيسا الحصار على المدينة من جميع جهاتها.

وتسرب الوهن إلى قلب الملك، وتولاه اليأس، وأخبر زوجته أن ماسينيسا حبيبها بالأمس

مقبل للإنتقام منه. وطلب إليها أن تنجو بنفسها وتهرب من المدينة وتعود إلى قرطاجة، حيث أبوها وأمها وعشيرتها.

لكن الملكة رفضت بإباء ما عرضه عليه زوجها، قائلة إن واجبها إنما هو في البقاء مكانها بين الجنود البواسل للدفاع إلى النهاية.

وخان الملكة قلبها في أثناء الحديث، وباحت شفتاها بكلمات لم تستطع حبسها، فأدرك الزوج التعس أن الفتاة الجميلة التي إستولى عليها ثمنًا لمحالفته، لا تزال على حبها القديم باقية، وعلى عهدها السابق مقيمة بعد أن أصبحت إمرأة وزوجة..

فتولاه الغيظ وأقسم أمامها أنه خارج للقاء ماسينيسا ثانية، وجهًا لوجه فإما أن يعود إليها حاملًا على كفه رأس حبيبها، وإما أن يموت كريمًا في ساحة الشرف، فيترك الزوج رأسه بين يدي العشيق!

وخرج صفاقس من المدينة مع فريق من الحامية. ودارت رحى القتال من جديد بين العدويين تحت أسوار سيرتا..

وإستبسل الملك الشيخ ولكنه غلب على أمره مرة أخرى، ودخل ماسينيسا المدينة فاتحًا، وإنتشرت فيها إشاعة مصرع الملك في حومة الوغى...

وكان من عادات ذلك العهد أن يساق أهل المدينة المكتسحة أسرى في الأغلال يرسفون. وأن يقتسم الفاتحون أولئك الأسرى، فيجعلون من الرجال عبيدًا ومن النساء سبايا ومحظيات...

وهذا ما إعتزم الرومانيون أن يصنعوه بعد إستيلائهم على سيرتا...

دخل القائد المنتصر على خطيبته بالأمس. فإنطلقت سوفونسبه تؤنبه على خيانته وإنضمامه إلى الأعداء ومحاربته أبناء وطنه تشفيًا وإنتقامًا. ومما قالت له:

ما ذنب قرطاجة لكي تسيء إليها؟ إذا كان واحد من القرطاجيين قد أساء إليك؟ وما ذنب وطنك لكي تؤذيه، وتذله، إذا كان بعض مواطنيك قد آذوك أو أذلوك؟

وإنفجر ماسينيسا وراح يعاتب بدوره:

– لم أقدم على شيء مما فعلت إلا حبًا بك!.. لم أدخل سيرتا للإستيلاء على المدينة فحسب، بل لإسترجاع الحبيبة والإنتقام من الرجل الذي إغتصبها مني... والحبيبة أنت يا سوفونسيه... وأقسم لك الآن، بعد أن بلغت مرادي إنني على إستعداد للتكفير عما فرط مني ومحو ذلك الماضي.. قولي كلمة، وسأعلن من الآن إنتقاضى على الرومانيين، قولي كلمة... قولي إنك ترضين بقي زوجًا لك، فيتغير كل شيء... ولن يساق أهل المدينة أسرى إلى روما، بل يطلق سراحهم، ويعطون سلاحًا لمواصلة الحرب... الحرب ضد روما!.

كان الرومانيون قد أعلنوا أن ماسينيسا سيصبح ملكًا على موريتانيا بعد أن يتم له الإستيلاء على سيرتا، وإنهم يهبونه أيضًا مملكة نوميديا المجاورة لموريتانيا. فلما عرض خطته على سوفونسيه، كان الضابط

الخائن إذن يخاطبها بوصفه الملك الذي حل محل زوجها على العرش!

فكرت الملكة في الأمر –وهي التي تزوجت بالرغم منها، والتي بقيت على الوفاء لحبها الأول– فراقها ما عرضه عليها القائد المنصور، ظنًا منها أنها بذلك ستنقذ شعبها من الأسر، وتكسب ماسينيسا من جديد لوطنها قرطاجة.

وما فكرت سوفونسيه في القبول، إلا بعد أن إعتقدت أن الملك الشيخ قد لقى حتفه... فما الفائدة من البقاء على إخلاصها لزوج مات وإنقضى أمره!

وإتفق الإثنان ماسينيسا وسوفونسيه على وضع القائد الروماني أمام الأمر الواقع...

وصل سيبيو إلى سيرتا. فأفضى إليه ماسينيسا بما تم بينه وبين الملكة. وقال أن شعب سيرتا وموريتانيا ونوميديا إنما هو شعبه، لأنه بويع بالملك مرتين: الأولى من الرومانيين أنفسهم قبل دخول سيرتا وتنفيذًا للمعاهدة بينه وبينهم، والثانية من الملكة نفسها التي رضيت به زوجًا بعد مصرع صفاقس!

لم يحفل سيبيو بما قاله ماسينيسا. بل فاه أمامه بعبارات تنم عن إحتقار ممزوج بالتهديد،

وتهديد ممزوج بالإحتقار. وقال إنه هو القائد العام الذي يمثل روما وإرادتها، وإنه صاحب السلطان المطلق في كل أرض يفتحها الجيش بإسم روما...

وقرر سيبيو إقامة عرض في المدينة إحتفالًا بالنصر، وأن يسير الجيش في العرض ومعه الأسرى. وطلب من ماسينيسا أن يتخلى عن الملكة لكي تساق ذليلة مكبلة بالسلاسل، أمام الجيش، مع غيرها من السبايا..

شق الأمر على ماسينيسا، وأراد أن يحول دون ذلك وأن يدفع عن حبيبته العار والذل. فحاول أن يثير الحامية لكي تعلن تمردها على سيبيو القائد العام وعلى روما... لكنه فشل...

ودب اليأس إلى قلب العاشق الحائر.

وفي تلك الأثناء، دوي في المدينة خبر كان له في القصر الملكي وقع الصاعقة، وفي قلب الملكة المسكينة فعل النصل الحاد...

أن صفاقس لم يمت! فقد أصيب فقط بجرح عميق. فحمله جنوده وأخفوه عن أعين الأعداء وأسعفوه بالعلاج...

وهو الآن في داخل الأسوار...

بل هو الآن في طريقه إلى القصر...

بل ها هو ذا صفاقس يدخل القصر..فيأذن له القائد الروماني بأن يختلي بزوجته...

قصت عليه سوفونسيه كل ما حدث ولم تحاول أن تخفي عنه شيئًا من التفاصيل: إنها لا تزال تحب ماسينيسا وترغب في إتخاذه زوجًا لها. وتريد أن تنقذ قرطاجة بفضل ذلك الزواج لأنه يعيد الخائن إلى حظيرة الوطنية والصواب.

وغضب صفاقس... وشتم وهدد... ولكنه وجد نفسه مخذولًا ضعيفًا أمام إمرأة عولت على الإصغاء لصوت قلبها فقط. فرماها بالخيانة والجبن.

وأسرع إلى سيبيو يطلب منه إقصاءه عن بلاد كان فيها السيد المطاع، فأصبح الآن وقد ضاع ملكه بسبب إمرأة... ووقع في الأسر، وفقد كل شيء... وأوشك أن يفقد الشرف...

وتحرك ضمير المرأة فهالها ما أقدمت عليه!

أصبح زوجها الأول أسيرًا لدى الأعداء، بعد إنهيار عرشه وهو عرشها وإنهزم جيشه وهو جيشها، وأصبح زوجها الثاني تعسًا مغضوبًا عليه، بعد أن خان وطنه بسببها، وشرع في خيانة روما التي إقترف خيانته السابقة من أجلها...

وبلادها... قرطاجة وموريتانيا، أصبحت تحت رحمة الغزاة الفاتحين، يتحكمون فيها ويأمرون وينهون...

وأصبحت هي في حيرة وشقاء، تتقاذفها المخاوف وتكتنفها الويلات، بعد أن أصيبت في حبها، وفي زواجها وفي وطنيتها!

ودعت ماسينيسا وقالت له:

– لن أرضى بالظهور بين الأسرى أمام الرومانيين... بل أوثر الموت ألف مرة على العار مرة...

وتحرك ضمير العاشق كما تحرك ضمير العاشقة... فبكى ماسينيسا... وإستطردت الملكة تقول:

– أنت الوحيد الذي أحببته في هذا العالم. فإستمع إلى مشيئتي الأخيرة: أريد أن أموت... فأطلب منك أن تعطيني سًما يودي بحياتي بدون ألم..ثم أرغب إليك في شيء آخر... وهو أن تنتقم لوطنك وتثار لي أنا من الأعداء... لقد خنت قرطاجة بسبب حبي... وحاربت أبناء قومك لكي تنزعني من بين أيديهم... فإنتقض الآن على الرومانيين كما إنتقضت من قبل على القرطاجيين.. عليك أن تخونهم من أجل حبي وتنتزع هذه البلاد من أيديهم تكفيرًا عن ذنوبك الماضية... فإذا فعلت ذلك رضيت عنك روحي في عالم الخلد!.. أفاعل أنت؟

فإحتضن الحبيب حبيبته، وغمر جبينها بالقبلات، وتمتم قائلًا:

– إنني لفاعل ما تريدين!

– أتقسم بآلهتنا وآلهة أجدادنا؟.. أتقسم بأرواح أولئك الآباء والأجداد؟.. أمام بعل وملكارث وعشتروت وجميع آلهة فينيقيا العظام. آلهة البلد الذي جاء منه أجدادنا وآباؤنا...

فبسط ماسينيسا يده وأقسم:

– أقسم أمام الآلهة، بأرواح الآباء ورفات الأجداد أن ياسوفونسيه وأنتقم لقرطاجة وسيرتا، وأحارب الرومانيين التي حاربت بها معهم...

وعملًا بإرادتها الأخيرة، جاءها بالسم الذي طلبته

وسألته سوفونسيه:

– ما إسم هذا السم أيها الحبيب!

- إسمه «شوكران»... تجرعه سقراط فمات بين أنصاره ومريديه ميتة هنيئة هادئة...

فتناولته الملكة من يد الحبيب...

وسري السم في عروقها، وخارت قواها شيئًا فشيئًا... وجعلت تلفظ كلماتها الأخيرة مع أنفاسها...

«وداعًا أيتها السماء الزرقاء، سماء بلادي الجميلة... وداعًا أيها الوطن المحبوب... أغادرك ذليلة مهانة، ولكنني أمل لك النهوض من كبواتك، وأرجو لك السعادة على يد حبيب أقسم لي أن يعيد إليك مجدك وحريتك... وداعًا أيها الأصدقاء... لا تذكروا بسوء إمرأة أحبتكم جميعًا، وما فعلت ما فعلته إلا حبًا بكم وبوطنكم...

... سأعود إليكم بروحي... وأطوف على أبوابكم، متنقلة من القصر الشاهق إلى الكوخ الصغير، مستفسرة عنكم، طالبة لكم الهناء الذي لم أتمتع به في حياتي!... أرسلوا من بينكم من يحمل خبر وفاتي إلى والدي الحزين المسكين، في قرطاجة، حيث يحاصره الأعداء وتساوره الشجون... وقولوا له أن إبنته سوفونسيه ماتت في سبيل قرطاجة، وإنها تطلبإاليه أن يموت أيضًا في سبيلها إذا تعذرت عليه الحياة عزيزًا حرًا مكرمًا في وطن مكرم حر عزيز... قولوا له إن روحي سترفرف عليه في ظلام هذه الليالي، وإنها ستفرح لفرحه وتشقى لشقائه... قولوا له إنني كنت زوجة صالحة، ومواطنة مخلصة وإنني حملت إسمه طاهرًا نقيًا... قولوا لنساء قرطاجة: لقد ماتت سوفونسيه في سبيل الوطن، فعلى كل إمرأة أن تفعل مثلها إذا لزم الأمر!

... جاءت اليمامة... اليمامة المرسلة من لدن الآلهة... جاءت لتحمل على جناحيها روع سوفونسيه إبنة أسدر بغل... فالوداع!...

وصعدت روح سوفونسية في الفضاء محمولة على أجنحة اليمام...

وكانت في الثالثة والعشرين من العمر. و كان ماسينيسا في الخامسة والعشرين...

القمران

عاشتا معًا...

وماتتا معًا...

ودفنتا معًا...

شرشل، سيزاريا، قيصرية... ثلاثة أسماء لمسمى واحد. غير أن الإسم الأول هو الذي تعرف به الآن تلك المدينة الرومانية القديمة الواقعة على شاطئ «الجزائر» الشمالي.

أطلق عليها جوبا التاني ملك موريتانيا إسم «يوليا سيزاريا» تخليدًا لذكرى القائد الفاتح الروماني يوليوس قيصر. ولا تزال آثار الهياكل والقصور والقلاع التي شيدها ذلك الملك في «قيصرية» عاصمة ملكة باقية إلى الآن في المدينة التي يعرفها الجزائريون بإسم «شرشل».

مات جوبا الثاني ملك موريتانيا في العام الثاني عشر بعد الميلاد، وخلف وراءه ذكرى طيبة وإسمًا عطرًا ومؤسسات عديدة ومؤلفات باللغة اليونانية قيمة مفيدة.

وكانت زوجته «كليوباترة سيلانه» أو الأميرة «قمر» قد سبقته إلى العالم الآخر.

وفي اليوم الذي إنتقلت فيه كليوباترة سيلانه إلى دنيا الأرواح، رحلت أيضًا عن هذه الأرض وصيفتها المحبوبة «لونا» أو بعبارة أخرى «قمر»

فمن هو جوبا الثاني ومن هما «القمران» اللذان غابا من الأنظار قبل أن يصبحا بدرين كاملين؟.

ماتت كليوباترة الكبيرة ملكة مصر منتحرة على أثر موت عشيقها ماركوس أنطونيوس، تاركة أبناء من آباء مختلفين بينهم ثلاثة هم ثمرة غرامها الجنوني الذي جر عليها وعلى عشيقها الروماني المصائب والويلات وهؤلاء الأطفال الثلاثة هم: ألكسندر هليوس أو إسكندر الشمس، وكليوباترة سيلانة أي كليوباترة القمر– وفيلادلف.

أفل نجم أنطونيوس وفشل ذلك القائد العاشق في ميدان السياسة والحرب، وإنهزم في الميادين شر هزيمة. ولم يستطع ثباتًا أمام أوكتافيوس شقيق الزوجة التي طلقها أنطونيوس وسقاها كأس الهوان حتى الثمالة حبًا بكليوباترة ورغبة منه في التمرغ بين ذراعي تلك الملكة الفاتنة الساحرة.

قطع أنطونيوس حبل حياته بيده بعد أن يئس من النصر.

وجاء أحد رجال كليوباترة المخلصين إلى الملكة التعسة بحية سامة في سلة مملوءة تينا. فماتت تلك الميتة التي خلت في التاريخ إسم الحية للمرة الثانية– منذ عهد حواء!

وفي العام التاسع والعشرين قبل الميلاد عاد أوكتافيوس إلى روما

سائقًا أمامه الأسرى والسبايا، وبينهم أبناء كليوباترة من عشاقها الكثيرين. وفي مقدمتهم أبناء علوه من الملكة الراحلة.

كان التوءمان –هليوس وسيلانة– في العاشرة من العمر، وكان فيلادلف أصغر منهما سنًا.

عهد أوكتافيوس إلى أخته أوكتافيا زوجة أنطونيوس المطلقة المهانة، في تربية أبناء زوجها من عشيقته تربية رومانية خالصة، بحيث تستطيع روما في مستقبل الأيام أن تستخدمهم لقضاء مآربها وتحقيق أغراضها.

ولكن ألكسندر ملبوس وفيلادلف ماتا قبل أن يبلغا الرشد. وبقيت كليوباترة سيلانة على قيد الحياة.

وعندما وضعت روما تاج الإمبراطورية على رأس أوكتافيوس ونادت به إمبراطورًا على الغرب والشرق بإسم «أوغسطس»، جعل الرجل يفكر في إنشاء دولة جديدة تخضع لتاج قيصر ويجلس على عرشها ملك وملكة ممن غذتهم روما بلبنها وعجنتهم بيدها.

وكان يقيم في روما في ذلك الوقت الأمير جوبا الأفريقي إبن جوبا الأول ملك نوميديا. وكان «يوليوس قيصر» قد هزم أباه وإجتاح وطنه وضمه إلى ممتلكات روما الشاسعة.

نشأ الأمير جوبا في روما نشأة لاتينية أنسته أصله ومصائب أبيه، فأصبح أطوع لقيصر من بنانه. وعندما بلغ أشده أقامه أوغسطس ملكًا على «موريتانيا» الأفريقية بإسم «جوبا الثانى».

وأطلق الملك الجديد على عاصمة ملكه إسم «سيزاريا» أو «قيصرية».

وفكر الإمبراطور في إعطائه زوجة تكون مثله مشبعة بروح روما وثقافتها. فوقع إختياره على كليوباترة سيلانة إبنة الملكة المصرية المشهورة، والحلقة الوحيدة الباقية من سلالة أنطونيوس فأصبحت إبنة كليوباترة ملكة مثل أمها!.

وقال قيصر لربيبته وهو يودعها يوم رحيلها عن روما إلى عاصمة ملكها:

– لقد كان إسم «هليوس – الشمس» شؤمًا على أخيك إسكندر فلعل إسم سيلانة – القمر» يجلب لك يا إبنتي الخير والسعادة والهناء.

وإنصرف جوبا إلى إدارة شئون مملكته بلباقة ومقدرة. فإزدهرت موريتانيا في عهده وعاش شعبه في رخاء وإطمئنان. وتمكن ذلك الملك النابغة من التوفيق بين إرضاء بلاده وإرضاء روما في آن واحد.

أما كليوباترة سيلانة فإنها لم تكن على وفاق مع ذلك الزوج الذي كان يهمل الملكة ولا يعطيها من وقته كثر مما تسمح له بذلك شئون المملكة. ولم تكن تلك الشئون لتسمح له بالإهتمام بزوجته والقيام تجاهها بواجبه كله.

وكانت كليوباترة سيلانة تعد نفسها أشرف محتدًا من ذلك الزوج وأنقى دمًا منه. أليست أمها كليوباترة؟ أليس والدها ماركوس أنطونيوس؟ أليست الدماء التي تجري في عروقها مزيجًا من الدم الروماني النبيل والدم اليوناني

النبيل أيضًا؟ فمن يكون جوبًا الأفريقي الموريتاني بالنسبة إليها ؟.

وإمرأة هذه عقليتها وهذا إعتقادها في نفسها لا يمكن أن تجعل زوجها سعيدًا في حياته وتضمن له الهناء. وإذا أضفنا إلى ذلك أن الزوج نفسه كان في شغل شاغل عن زوجته، منصرفًا إلى معالجة شئون مملكته ورعاية الأدب والعلم وتشييد الهياكل، والقصور وتأسيس المعاهد وخدمة الفنون، أدركنا أن كلا الزوجين الملكيين كان يعيش غريبًا عن الآخر، معتمدًا على نفسه فقط، غير باحث عند رفيق حياته على معونة أو عطف أو حب!.

وكانت الملكة سيلانة تتمتع بحقوق خاصة بها، أقرتها روما وأرغمت الملك جوبا الثاني على إقرارها أيضًا، بحجة أن سيلانة رومانية أصيلة في حين أن زوجها غريب عن روما تبناه الإمبراطور فإكتسب القومية الرومانية إكتسابًا. وتلك الحقوق التي كانت كليوباترة سيلانة تتمتع بها كانت تجعلها قادرة على طبع صورتها على النقود الموريتانية وعلى جدران الهياكل والقصور، وإصدار أمرها إلى رجال الحرس والجيش، ومناهضة سلطة الملك إذا خطر ببالها أن تفعل.

وكثيرًا ما كان يخطر ذلك ببال كليوباترة سيلانة!

***

– تعالي يا لونا تعالي فإنني أشعر الليلة بضيق في صدري ويخيل إلي أنني مسرعة بخطى واسعة نحو القبر!

ألقت «لونا» بنفسها على قدمي سيدتها وقالت بصوت حنون ينم على حب وإخلاص:

– بددي أفكارك السوداء يا مولاتي فسوف تعيشين طويلًا. إنك جميلة قوية والمستقبل يضحك لك ويناديك!

– كلا يا لونا!.. لقد شاءت الآلهة أن تغرب «شمس» أخي هليوس قبل الأوان، وسوف يغيب «قمر» سيلانة قبل الأوان أيضًا!

قالت الملكة الشابة هذا وبكت..

وتساقطت دموعها على يدي وصيفتها «لونا» فبكت الجارية لبكاء سيدتها.

وإمتزجت دموع «القمرين» وسيلانه ولونا في سكون ذلك الليل، في قصر جوبا الثاني المشرف على البحر بمدينة قيصرية.

– لونا.. لقد أطلقوا عليك هذا الإسم لأنك ولدت في الليلة التي ولدت فيها أنا! سموني بلغة أمي اليونانية «سيلانة» وسموك بلغة عشيق أمي أنطونيوس الروماني «لونا» والإسمان لمسمى واحد. هو القمر الذي يضيء الليالي السوداء. ولكن القمر اليوناني سوف يغيب قبل أن يصير بدرًا. فلن يتحقق دعاء أوغسطس قيصر! وأرجو يا أختي أن يبقى القمر الروماني متلألئًا في الفضاء وأن تعيش طويلًا يا لونا!

فقبلت لونا قدمي مولاتها وقالت والزفرات تخنقها:

– لن أنسى يا سيدتي أن أبي المصري هو ذلك الرجل الذي خضع لإرادة أمك الملكة العظيمة، وحمل إليها في قصرها بالإسكندرية الحية السامة في سلة التين. لقد مات أبي أيتها الملكة بعد أن أفضى إلي

برغبته الأخيرة: وهي أن ألحق بك حين تذهبين، وأن أكون لك خادمة مطيعة كما كان بائع التين خادمًا مطيعًا لأمك، وأن أرحل عن هذا العالم في اليوم الذي ترحل فيه عنه سيلانه ويغيب قمرها عن الأنظار!

– إذن سوف نلحق بأمي وأخوي في العالم الآخر متعانقين، فيلتقي القمران هناك بكليوباترة ربة السحر والجمال وإبنها هليوس الشمس المشرقة!

وفي اليوم التالي، إرتفعت في قصر الملك أصوات النساء ومزق عويلهن الفضاء وحمل الرسل إلى الملك جوبا الثاني خبر وفاة زوجته كليوباترة سيلانة.

ترك الملك مجلسه. وأسرع إلى حجرة الملكة، فإذا به أمام جثة هامدة.

بل أمام جثتين هامدتين!

جثة زوجته وقد خرجت روحها من بين شفتيها، تاركة عليهما إبتسامة حلوة.

وجثة الوصيفة لونا وقد بات وجهها حالك السواد من أثر السم الزعاف الذي تجرعته.

وقف جوبا الثاني أمام الجثتين مطرق الرأس صامتًا. ثم إلتفت إلى نساء القصر ورجال الحاشية وقال:

– لتدفن الملكة في حديقة القصر، وليعلن الحداد عليها أربعين يومًا.

ثم تقدم من جثة زوجته وتناول يدها بيده وقال:

– لم نذق لذة الحياة معًا أيتها الحبيبة ولم ننعم بالسعادة والهناء في هذا العالم، فلتسهر عليك الآلهة في الآخرة، وأعدك الآن بأنني سأتعهد بعنايتى ولدنا «بطليموس» وإبنتنا «دروزيلا» راجيًا أن يكونا في هذه الحياة أوفر منا حظًا وسعادة وهناء!

وهم الملك بالخروج من قاعة الموت فإرتفع صوت سائلًا:

– ولونا؟ لونا الوصيفة الأمينة، أين ندفنها؟

فأجاب الملك:

– لتدفن بجوار سيدتها. فقد كان القمر للقمر وفيًا!

وفي حديقة القصر رقد القمران: كليوباترة سيلانة، إبنة كليوباترة ملكة مصر من عسيفها الروماني ماركوس أنطونيوس وزوجة الملك جوبا الثاني. والوصيفة «لونا» إبنة البائع المصري الذي حمل إلى كليوباترة العظيمة الحية السامة في سلة التين!

قبر الرومية

ما أكثر الأماكن الأثرية التي تحمل أسماء لا تنطبق على المسمى: ومن هذه الأماكن «قبر الرومية» في الجزائر.

لم يتردد «بطليموس» ملك موريتانيا، لحظة واحدة في السماح بالمثول بين يديه، للمرأة المصرية التي وقفت بباب القصر في صباح ذلك اليوم، قائلة إنها قادمة من روما لمقابلة الملك والإفضاء إليه بأمر خاص به دون سواه.

إن لمصر في نفس بطليموس مكانة خاصة. فهي مسقط رأس أمه، ومقر عرش تبوأه أجداده نحو ثلاثة قرون، حتى جاء الرومان فأزالوه من الوجود..

دخلت المرأة. فإذا هي غادة بارعة الجمال، في نهاية العقد الثالث من العمر ترتدي ثوبًا هو مزيج من الطرازين المصري والإغريقي، كما كان شائعًا في عهد البطالسة في الإسكندرية...

رحب بها الملك، وقال لها إنها تحل في ضيافته منذ تلك الساعة وسألها ما الذي حملها على هجر وطنها، ولماذا جاءت إلى عاصمته «يوليا سيزاريا» وهل هي وحدها، أم في صحبة رفاق من بني قومها؟

وبصوت عذب، وعبارات تتخللها العبرات، قصت المرأة قصتها على بطليموس...

إنها وحدها لا يصحبها أحد في رحلتها... بل إنها وحيدة في الحياة لا تمت إلى أحد بنسب... مات أبوها المصري وهي في سن الرضاعة. فعنيت بتربيتها أمها «أنطونيا» إبنة «سيسترا» الوصيفة في بلاط الملكة كليوباترة، وهي أيضًا تحمل هذا الإسم، إسم جدتها «سيسترا». ولما شعرت الأم بأن ساعتها الأخيرة قد دنت، أرادت أن تطمئن على مستقبل الصبية، فإختارت لها من بين أصدقاء الأسرة زوجًا صالحًا، وسلمتها ما كانت تدخره من مال، وتملكه من تحف وحلي. ثم تناولت كيسًا مصنوعًا من جلد الغزال، وأخذت منه خمارًا ناصع البياض، ووضعته بين يدي إبنتها قائلة لها: «إن هذا الخمار يا إبنتي من مخلفات الملكة كليوباترة التي ماتت كما تعلمين من لدغة حية سامة لما بلغها خبر إنتحار الروماني ماركوس أنطونيوس. وهو هدية منه إلى كليوباترة.

صنع من أدق خيوط القطن المصري. وقد نحرت كليوباترة بيدها غزالة بيضاء كانت أليفة، تروح وتجيء في القصر، وصنعت من جلدها هذا الكيس لتحفظ فيه خمار الحبيب العزيز... ولما تبعثرت محتويات القصر الملكي، بعد وفاة كليوباترة وأنطونيوس، ودخول الرومان إلى البلاد فاتحين منتصرين، وهرب الخدم والوصيفات، عثرت أمي سيسترا – جدتك يا إبنتي– على الكيس الثمين ملقى تحت النافذة التي كانت الملكة تجلس أمامها في صباح كل يوم... فأخذته، وإحتفظت به... وآل إلى بعد موتها... وإنني أضعه الآن وديعة بين يديك، فحافظي عليه، وعلى الخمار الذي يضمه في طياته... وإذا قدر لك أن تلتقي، في

مستقبل الأيام، بأحد من أبناء الملكة أو أحفادها، فسلميه هذه الأمانة، ولتكن المكافأة أن يذكرني ويذكر أمي سيسترا بالخير...

وماتت الأم مرتاحة البال... ولكن الإبنة لم تنعم بالطمأنينة والسعادة من بعدها... فقد مات زوجها أيضًا، بعد أمها بسنتين، وبقيت وحيدة لا سند لها ولا معين... فإعتزمت الرحيل عن مصر، وإلتحقت بخدمة قائد روماني كوصيفة لزوجته، وأبحرت معهما من الإسكندرية إلى روما... ومن هناك قررت المجيء إلى «يوليا سيزاريا» عاصمة موريتانيا مدفوعة بالرغبة في لقاء الملك الجالس على عرشها، «بطليموس»، إبن الملك «جوبا» من زوجته «كليوباترة سيلانة» إبنة كليوباترة ملكة مصر، من ماركوس أنطونيوس الروماني.

أصغى بطليموس إلى رواية المرأة المصرية صامتًا، تتماوج على وجهه الإنفعالات النفسية التي إختلج بها صدره لسماع تلك التفاصيل المثيرة ولما سكتت سيسترا، سألها بلهفة:

– والخمار يا سيسترا؟

وكان المرأة كانت تنتظر منه هذا السؤال. فقد مدت يدها إلى صدرها، وإنتزعت الكيس الأبيض من طيات ثوبها، وأخرجت منه الخمار الناصع ونشرته أمام أنظار الملك قائلة:

– الأمانة بين يديك يا حفيد كليوباترة.!

فنهض بطليموس من مكانه، وضم أصابعه على ذلك الأثر العائلي النفيس، وغمره بالقبلات والدموع، ثم إلتفت إلى سيسترا قائلًا:

– سأجعل من هذا الخمار الذي كان إزارًا لجدتي، كفنًا لأمي!

في سنة ٣٠ قبل الميلاد، بعد زوال عرش البطالسة في مصر، بموت آخر ملكاتهم، نقل الرومان إلى عاصمتهم أبناء كليوباترة من أزواجها العديدين...

وفي روما نشأت «كليوباترة سيلانة» أي كليوباترة «القمر» إبنة ملكة مصر من ماركوس أنطونيوس، وترعرعت تحت أنظار الرومان، وفي رعاية «أوكتافيا» الزوجة التي هجرها أنطونيوس من أجل عدوه اللدود «أوكتافيوس» الذي خلا له الجو في روما بعد أن تخلص من مزاحميه، فتبوأ العرش بإسم «الإمبراطور أوغسطس قيصر». وقضى على النظام الجمهوري في روما، عاصمة الدنيا وسيدتها في ذلك الوقت.

وأراد قيصر ان تكون كليوباترة سيلانة زوجة لملك موريتانيا «جوبا الثاني» التابع للرومان، فكان له ما أراد...

وفي مدينة «يول» المستعمرة الفينيقية القديمة، التي جعلها جوبا عاصمة ملكه، وسماها، «يوليا سيزاريا» نسبة إلى القائد الروماني الأشهر يوليوس قيصر، شيد العريس الإفريقي لعروسه الحسناء قصرًا في غرب البحر المتوسط، حاول أن يجعله شبيهًا بالقصر الذي رأت فيه النور، وعاشت فيه أمها على شاطىء الإسكندرية، في شرق ذلك البحر.

لكن الحياة الزوجية لم تكن مصحوبة بالسعادة والهناء، بالنسبة إلى الزوجين، بل كان الخلاف بينهما متواصلًا دائمًا، على جميع الشئون

الخاصة والعامة. غير إنهما كانا يتظاهران بإنهما على وفاق تام، تجنبًا لتدخل الرومان بينهما، وما قد يجره ذلك عليهما من متاعب...

كانت سيلانة دائمة التفكير في الموت، تعتقد أن أيامها معدودة، وأحيانا تتمنى من أعماق قلبها، أن تنصرم تلك الأيام وتريحها من حياة لم تكن لتحقق لها ما كانت تصبو إليه من أمنيات وآمال.

طلبت ذات يوم من زوجها الملك أن يعد لأسرته ضريحًا لائقًا بها، وأن يكون الضريح شبيهًا بالأهرام التي شيدها الفراعنة في أرض مصر، لتكون لهم المثوى الأخير. فأجابها جوبا الثاني إلى رغبتها، وأمر بأن يبني هرم في ظاهر العاصمة، وبدأ المهندسون والعمال ينفذون الأمر الملكي، وكانت الملكة نفسها تشرف على سير العمل...

وماتت سيلانة قبل أن يتم تشييد الضريح. فدفنت في حديقة القصر الملكي، ودفنت معها وصيفة لحقت بها من مصر، وكانت رفيقة صباها، وتحمل إسمًا لاتينيًا يشبه إسمها الإغريقي «لونا» ومعناها «القمر».

ولما لحق بها زوجها الملك، لم يكن الضريح قد أعد بعد، فدفن جوبا بجوار زوجته سيلانة والوصيفة لونا. وكان الزوج قد بلغ السبعين من العمر. أما الزوجة فقد ماتت وهي دون الخمسين.

وخلف «بطليموس» أباه وأمه على عرش موريتانيا. وكان ذلك في سنة ١٨ للميلاد وفي عهد تيبريوس قيصر، ثاني أباطرة الرومان.

من رغبات كليوباترة سيلانة التي إستجاب لها جوبا الثاني، تسمية

إبنها البكر «بطليموس» وهو الإسم الذي حمله جميع الملوك من أسرة «لاجوس» المقدونية في مصر، من سنة ٣٢٣ إلى سنة ٣٠ قبل الميلاد. وهكذا بعد أن أفل نجم البطالسة في المشرق، ومر نحو نصف قرن على وفاة كليوباترة الكبيرة، عاد النجم فلمع من جديد في المغرب، في عهد سيلانة ملكة موريتانيا، ثم في عهد إبنها وخليفتها بطليموس.

أوصاه أبوه، قبيل موته، بأن يواصل العمل في بناء الضريح، لكي يدفنه فيه مع الملكة التي سبقته إلى العالم الآخر. وعمل الإبن بوصية الأب، فأنجز البناء الذي جاء فخمًا رائع المنظر، يثير الإعجاب بضخامته، ويخلب الألباب بأعمدته العديدة ونقوشه البديعة. وزاده جمالًا على جمال غرس الأشجار على طول الطريق المؤدية إليه، وكثرة الرياحين والأزهار من حوله، على سفح الهضبة التي إعتلى الضريح قمتها.

وما أن إنقضت سنتان على وفاة الملك جوبا الثاني، حتى كان الضريح معدًا للغرض الذي شيد من أجله. فقرر بطليموس أن ينقل إليه رفات أبيه وأمه، في مشهد يشترك فيه الشعب الموريتاني، الذي أحبه الملك الراحل وأحبته الملكة، فقابل حبهما بالولاء والوفاء.

في ذلك الوقت، وبينما كان الملك بطليموس يستعد لنقل الرفات إلى المقر الأخير، وصلت إلى «يوليا سيزاريا» المرأة المصرية، حاملة إلى حفيد كليوباترة، خمار جدته الأبيض، في كيس أبيض مثله.

وتلك المصادفة العجيبة جعلت بطليموس الملك يقول لسيسترا، وهو يغمر الأثر العائلي النفيس بالقبلات والدموع:

– سأجعل من هذا الخمار الذي كان إزارًا لجدتي، كفنًا لأمي.

لم تشهد يوليا سيزاريا موكبًا كذلك الذي خرج من باب سورها الكبير، في سنة ٢٠ بعد الميلاد، وإنساب في السهل الممتد حول العاصمة، خلف نعشين وضعا على زحافتين تجرهما الجياد المطهمة، في طريق تكتنفه الأشجار من الجانبين، متجهًا نحو الشرق، حيث يرتفع «هرم جوبا» المعد ليكون مأوى للنعشين، اللذين يضمان جثماني الملك والملكة.

مشى بطليموس، الإبن البار، في طليعة الموكب، ومن حوله أفراد أسرته ورجال حاشيته، وتبعه الكهنة يرتلون الأناشيد، والعذارى يلوحن بالأغصان الخضراء، وأفواج من الضاربين على القيثار والنافخين في الأبواق والقارعين على الطبول، وكبار القواد وعظماء المملكة، ثم الشعب الخاشع رجالًا ونساء وأطفالًا...

وكان نعش الملكة ملفوفًا بالخمار الأبيض، الذي جاءت به سيسترا المصرية من الإسكندرية، بمثابة كفن يلازمه في ظلمة القبر. ووضع النعشان في المكان المعد لهما بين جدران الهرم.

وفي اليوم التالي، أمر بطليموس بأن ينقل أيضًا رفات الوصيفة «لونا» من حديقة القصر، ويدفن أيضًا في قبر أعد له بجوار الضريح الملكي...

أقامت سيسترا إبنة أنطونيا وحفيدة وصيفة كليوباترة في قصر الملك بطليموس معززة مكرمة. وكانت كثيرة التردد على الضريح، حيث تجلس في عزلة عن الناس، وتطلق خيالها العنان، وتتذكر الماضي البعيد

والقريب، وتقارن بينه وبين حاضرها المفعم بالراحة والإطمئنان.

أراد الملك أن يختار لها زوجًا من بين فرسان حرسه، فرجته ألا يفعل، قائلة إن بقاءها بالقرب منه، وما تجده في القصر منعطف ورعاية وما تشاهده من حب متبادل بين الملك وشعبه، كل ذلك يغنيها عن السعي إلى ما عداه من أنواع السعادة...

عشرون سنة قضتها سيسترا في بلاط الملك بطليموس، وأخذت في خلالها نصيبها من السراء والضراء، وحضرت الأفراح والأتراح، ولم يحدث قط ما يعكر صفو علاقاتها بصاحب العرش وأفراد أسرته.

سافرت إلى روما مع بطليموس وعادت معه إلى يوليا سيزاريا غير مرة...

وفي إحدى تلك الرحلات –وكانت الأخيرة– هبت العاصفة التي أودت بحياة بطليموس وأطاحت بعرشه.

ففي سنة ٣٧ للميلاد، جلس على عرش الإمبراطورية الرومانية، ثالث قياصرتها، كاليكولا السفاح المجنون. فناصب ملك موريتانيا العداء، بدون سبب مبرر. وحاول بطليموس عبثًا أن يتفادى مغبة ذلك العداء، ولكن مساعيه ومساعي أصدقائه من عظماء الإمبراطورية باءت بالفشل. وفي سنة ٤٠ للميلاد، أمر كاليكولا بقتله في مأدبة صاخبة. ودفنت جثته في مكان مجهول.

وعادت سيسترا مع رفاق الملك المقتول إلى عاصمة موريتانيا، حيث ساد الإضطراب وإنتشر الفزع، وشعرت المرأة بأن حياتها قد إنتهت بإنتهاء حياة الملك الذي غمرها بعطفه وأحاطها بحمايته.

وفعل الرومان في موريتانيا ما فعلوه من قبل في مصر، يوم جعلوا من البلاد إقليمًا من أقاليم إمبراطوريتهم الشاسعة. وهربت الملكة أورانيا توجة بطليموس إلى الجبال وإختفت.

وفي ذات يوم، عثر الزائرون عند هرم جوبا، على سيسترا المصرية جثة هامدة. فأشفقوا عليها بعد موتها، وحفروا حفرة بجوار القبر، وواروا فيها جثة المسكينة.

وظلت رياح الخوف تعصف بشعب موريتانيا أكثر من سنة، ولم تهدأ إلا بوفاة القيصر المجنون كاليكولا في سنة ٤١ للميلاد.

وتعاقبت الأجيال... وتعاقب معها الغزاة والفاتحون. جاء بعضهم من الخارج، وأقبل بعضهم من الصحراء، وفقدت يوليا سيزاريا مع الزمن مكانتها، وتضاءلت أهميتها، وتداعت قصورها وهياكلها، وتساقطت أعمدتها، وهجرها فريق من سكانها إلى حيث يتوافر لهم الأمان والإطمئنان.

وفي القرن الهجري الأول، والقرن الميلادي السابع، طوى العرب تحت جناح دولتهم الأيسر الساحل الأفريقي من الشرق إلى الغرب. ولما حلوا في بوليا سيزاريا، سموها «قيصرية» ثم تغير الإسم الى «شرشال» حتى إستقر في النهاية على ما هو في أيامنا هذه: «شرشل».

وأما موريتانيا، فقد إختفى إسمها من الأذهان، وأصبحت مع الوقت إقليمًا من أقاليم «الجزائر» العربية.

فإذا خرجت من بلدة شرشل، وإتجهت إلى الشرق، أو خرجت من

مدينة الجزائر وإتجهت إلى الغرب، ثم جنحت قليلًا إلى الجنوب، وسرت في سهل «متيدجة» فإنك تصل في أحد أطرافه إلى هضبة صغيرة يبلغ إرتفاعها نحو مائتين وستين مترًا، وترى فوق تلك الهضبة، بناء قديمًا متهدمًا، تختلط حجارته بالأتربة، ولا يزيد إرتفاعه على ثلاثين مترًا، وقطر دائرته على ثلاثة وستين مترًا، وحول قاعدته يمتد صف من الأعمدة يبلغ عددها الستين، وله أربعة أبواب يواجه كل منها جهة من الجهات الأربع، وفي داخله دهاليز خالية خاوية.

والبناء يحاكي في شكله الأهرام المصرية.

ذلك هو هرم جوبا الثاني، وضريح ملوك موريتانيا الذي حوى في جوفه جثمان الملك وزوجته إبنة كليوباترة وماركوس أنطونيوس، والذي كانت الأشجار والرياحين والأزهار تغطى سفوح التل الذي شيد الهرم على قمته.

ولو سألت: «ما هذا البناء؟» لأجابك الذين تسألهم: «هذا قبر الرومية».

وكلمة «الرومية» هنا معناها «المسيحية» فمنذ أن إشتبك العرب المسلمون في حروب طاحنة مع دولة الرومان الشرقية، و«الروم» أصحاب بيزنطة، أصبحت كلمة «رومي» في عرفهم مرادفة لكلمتي «مسيحي» و«نصراني» وظلت تؤدي هذا المعنى مدة طويلة من الزمان.

وقد راجت في الجزائر، وفي وقت لا يمكن تحديده، أسطورتان إثنتان، حول هرم جوبا:

الأولى تقول: بأن ذلك البناء كان مثوى لأميرة مسيحية دفنت فيه مع كنوزها الكثيرة، ولهذا عرف البناء بإسم «قبر الرومية».

والثانية تقول: بأن ساحرًا من الغرب تمكن من فتح باب الفريح والإستيلاء على كنوز الرومية.

وليست الأسطورتان غير رواية للحقيقة مشوهة، تناقلتها الألسنة على كر الأجيال، فحررتها جيلًا بعد جيل...

فبالبناء ضريح لملكة وملك وثنيين سطا عليه اللصوص فنهبوا الكنوز التي دفنها بطليموس مع رفات أبيه وأمه، ولم يتركوا حتى للنعشين وللعظام أثرًا...

وحط الدهر على البناء وعبثت به أعاصير الطبيعة، فلم يبق اليوم من رونقه السابق، وروعته الماضية، غير تلك الكومة من الحجارة والأتربة والأعمدة المتداعية، التي يسميها الناس «قبر الرومية» وهو إسم لا ينطبق على المسمى...

إبن القمر

ضحك له الحظ ثم عبس في وجهه، فإرتفع ثم
هوى وراح ضحية الغدر والطمع!

كانت ليلة مظلمة ممطرة، وأمواج البحر المتلاطمة الهائجة يسمع لها من بعيد هدير مزعج متواصل، والبرق يشق سواد الليل بلمعانه، تتبعه الصواعق والرعود بهزيمها المرعب، والملكة «أورانيا» متربعة على كومة من الوسائد، أمام النافذة التي لا ترى من خلالها شيئًا، وتلقى بين لحظة وأخرى نظرة ملؤها الحب والحنان على زوجها الملك، الحائر في القاعة الفسيحة، كأسد في قفص، يروح ويجيء مهموم البال شارد الفكر.

ومزق الرجل الصمت فجأة، سائلًا: «أورانيا.. أتعتقدين حقًا أن الإمبراطور «كاليكولا» يضمر لي شرًا، وأن دعوته تنطوي على مكيدة أو خيانة؟».

كان صوت الملك متهدجًا ونبراته تنم عن إضطراب نفسه، ولكن الملكة أجابته بتغريد شجي كغناء البلبل:

– بطليموس، حبيبي.. ما أردت بما أفضيت به إليك من رأي غير تحذيرك من التفاؤل والتواكل، لا إثارة المخاوف في نفسك، وحملك على الوقوف موقفًا لا يليق بأصحاب التيجان.. ومهما يكن من أمر، فلابد لك من تلبية دعوة الإمبراطور، والذهاب إلى روما، نزولًا على

رغبته، لأن ملكنا تابع ملكه، وسلطاننا مستمد من سلطانه.. ولكن – هناك– كن يقظًا.. ولا تثق بأحد من أولئك الرومانيين المخاتلين، وإحترس من كل ما يجري حواليك، ولا تنتقل من مكان إلى آخر بدون أعوانك الذين سيرافقونك في هذه الرحلة الخطرة.

– أنت على حق في كل ما ذهبت إليه..

– أنك لا تجهل يا بطليموس أن «بورفورا» الحسناء التي أهديناها للإمبراطور «كاليكولا» إجابة لطلبه، ليست في الواقع غير جاسوسة لنا في بلاط قيصر، وهي توافيني بلا إنقطاع بكل ما يحدث فيه، وما يقال، وهي أيضًا التي أرسلت تحذرني من مظاهر الصداقة والمحبة التي يبديها لنا «كاليكولا» في هذه الأيام، فإن هذا الإمبراطور السفاح المجنون في حاجة إلى المال، كعادته، وفي سبيل الحصول عليه، لن يتردد في الإقدام على أي عمل من أعمال العنف: التزوير، السرقة، الإكراه، القتل.. فلنحترس!

– صدقت، لنحترس!

بعد إنهيار حكم البطالسة في مصر، بإنتحار آخر ملكاتهم فيها، كليوباترة عشيقة القائد الروماني أنطونيوسي، نقل أبناء الملكة وأفراد أسرتها إلى روما، حيث تولى أمرهم الإمبراطور أوغسطس قيصر وخلفاؤه.. وكان لكليوباترة إبنة من أنطونيوس عرفت بإسم «كليوباترة سيلانة» ومعناها «القمر» باليونانية، زفت إلى «جربا الثاني»، ملك «موريتانيا» على الساحل الأفريقي، فلما توفي في سنة ١٨ بعد الميلاد،

خلفه على العرش ملكًا على «موريتانيا» التي ضمت «نوميديا» أيضًا، إبنه «بطليموس» حفيد كليوباترة وأنطونيوس من إبنتهما «سيلانة».

وقد حافظ الملك الجديد على صداقة الرومانيين الذين أقروه في ملكه، وظل في جميع أعماله وفيًا لهم، فساعدهم على إخماد ثورة الإفريقيين بقيادة «تكفاريناس» في عهد الإمبراطور «تيبيروس»، ولكنه بدأ يوجس منهم خيفة منذ أن إعتلى عرش القياصرة رجل قاسي القلب، شاذ الشعور، مختل العقل، هو «كاليكولا» الفاسق الفاجر، الذي حكم روما في سنة ٢٧ للميلاد وهو في الخامسة والعشرين، والذي كان في حاجة دائمة إلى المال، يأخذه من الأفراد والجماعات والشعوب بلا وازع ولا حساب، ليملأ به خزائن الدولة، ثم يغترف منه أيضًا ملء قبضتيه لينفقه في أعماله الجنونية بلا وازع ولا حساب!

وقد بلغ الإمبراطور السفاح أن في حوزة ملك «موريتانيا» أموالًا طائلة، وأكداسًا من الذهب والفضة، وأكوامًا من الحلى والجواهر، وهي ما تبقى من كنوز البطالسة التي نقلت من الإسكندرية يوم رحلت عنها الأسرة المالكة وكان هذا حقًا... لأن «بطليموس» كان في الواقع أغنى ملوك عصره، بل أغنى من قيصر نفسه، المتربع على عرش روما، والذي لم يكن بطليموس غير واحد من عشرات الملوك التابعين له..

وكانت الملكة «أورانيا» تعنى عناية خاصة بصيانة ثروة زوجها الهائلة، إحتياطًا منها للمستقبل، وخوفًا من أن تمتد يد القدر بسوء إلى عرش «موريتانيا» وأصحابه، كما إمتدت من قبل إلى عرش مصر

وأصحابه ولهذا أنشأت مخابئ حصينة بمدينة تاماكا، أخفت فيها ما تملك من جواهر وحلى وفضة وذهب من كنوز البطالسة الباقية، وجعلت تأخذ منها ما تقضي الضرورة بأخذه، وتكتم ما إستطاعت سر المخابي عن أسماع الناس وأبصارهم.. فلما وصل النبأ إلى «كاليكولا»، القيصر المجنون المتعطش إلى المال تعطشة إلى الدماء، جعل يرسم الخطط وينصب الشراك للإستيلاء عليها.

وكان من بين الأساليب التي لجأ اليها لإستيفاء معلوماته عن كنوز البطالسة، جلب عشرات من القواد ورجال الحاشية والخدم والعبيد من موريتانيا إلى روما لإلحاقهم بخدمته، وإغداق نعمه عليهم ليستطلع منهم أخبار مولاهم بطليموس ومولاتهم أورانيا.. وقيل له أن للملكة وصيفة مصرية الأصل، هي موضع ثقة الملكة ومستودع أسرارها، فأرسل الإمبراطور يطلب من بطليموس إهداءه إياها لتكون في خدمة زوجته وأخواته، ولم يجرؤ الملك على رفض هذا الطلب، فإفترقت الملكة «أورانيا» عن وصيفتها على مضض، ولكن بعد أن تواطأت معها على أن تكون في قصر الإمبراطور، عينًا لها وأذنًا، وأن تنقل إليها كل ما يصل إلى علمها من أعمال قيصر وأقواله ونواياه.

وذهبت الوصيفة «بورفورا» إلى عاصمة الإمبراطورية العظيمة، ولكنها بدل أن تكون جاسوسة لقيصر على مولاتها ومولاها، أصبحت جاسوسة لهما على قيصر وزوجته وأخواته.. وهي التي أرسلت تخبر «أورانيا» بطمع الإمبراطور في ثروة البطالسة، ورغبته في الإستيلاء عليها،

وتحذرهما مما تخفيه دعوة «كاليكولا» لزوجها بطليموس للذهاب إلى روما، من أهداف قد تكون وخيمة العاقبة على الضيف في كنف مضيفه!.. وهذا ما جعل الملكة أورانيا تمعن في التفكير، وتباحث زوجها في أمر تلك الدعوة، وتلح عليه بأن يصطحب معه جماعة من أعوانه المخلصين، ويكون على حذر من كل حركة وسكنة تبدو من الإمبراطور المجرم الماجن..

ورأى الزوج والزوجة أن لا سبيل إلى التهرب، لأن في هذا ما قد ينير غضب قيصر وشكوكه، فيعمد إلى القوة والعنف، ولا طاقة لموريتانيا على الوقوف في وجه روما ومناصبتها العداء. فسافر الملك بطليموس مع حاشية من أبعد رجاله تفانيًا في الإخلاص له، وحل ضيفًا على الإمبراطور كاليكولا، في قصر أعد خصيصًا لحفيد كليوباترة ورفاقه الموريتانيين، حلفاء روما الكرام الأعزاء!

وأمر قيصر بأن تعد العدة لرحلة في بلاد «غالبا»، وأن يكون بطليموس ورفاقه في معيته، وكانت الرحلة سلسلة متواصلة من الأعياد والمهرجانات والحفلات والمغامرات، ثبت فيها جميعها للملك الموريتاني أن الإمبراطور الروماني مجنون لا شك في جنونه، سفاح لا يعرف قلبه الشفقة، ولا يتردد في ذبح ضحاياه بيده، ويتمنى «لو كان الشعب روما كله رأس واحد ليقطعه بضربة واحدة!».

وإستقر المقام في النهاية للإمبراطور ورفاقه في مدينة «ليون» حيث أعد قصر الحاكم لمأدبة من تلك المآدب التي كان «كاليكولا» يتفنن

في إقامتها، ويأمر بأن توضع فيها على الموائد أمام الضيوف، الخرفان والثيران والخنازير البرية والجمال المجلوبة من الشرق، كاملة كما هي وتقدم فيها الخمور في قرب من جلد الحمير، وبعد أن يهوى المدعوون إلى مرتبة البهائم، يرفع قيصر عصاه الذهبية التي لم تكن تفارقه، ويشير إلى واحد بعد آخر من الخدم والعبيد، وأحيانا إلى الجواري من النساء، أو إلى أحد المدعوين إذا تراءى له ذلك، فيثب الحراس على من تصيبه تلك القرعة الهوجاء، ويفصلون رأسه عن جسده، ويلقون بهذا الرأس على الموائد وسط الضحك والتصفيق والهتافات لقيصر بطول العمر!

وهذا ما حدث في تلك الليلة، في قصر الحاكم الروماني بمدينة ليون: فقد أكل الإمبراطور ومدعووه وشربوا وسكروا، وبدأ الحراس يلبون إشارة مولاهم، فيذبحون ويطوفون بالرءوس الحمراء ويضعونها في الأطباق بين أكوام اللحوم والفاكهة...

وفي غمرة تلك المأدبة الجهنمية، شعر الملك بطليموس بيد تمسك بكتفه، وبأنفاس حارة تداعب وجهه، وسمع صوتًا عذبًا يهمس في أذنه قائلاً: «مولاي لا تلتفت إلى وأنا أستبدل الأطباق والأقداح بغيرها... أنا بورفورا... لماذا جئت إلى هنا؟! أهرب... قبل فوات الوقت... في وسعك أن تنتحل أي عذر للخروج من هذه القاعة... وعلى الباب... ثلاثة من النساء سيساعدنك على الهرب... أن كاليكولا عازم على ألا يدعك تخرج حياً من هنا!».

قالت الفتاة هذا بلهجة ثابتة، وكلمات بطيئة، بدون أن يفطن إليها

أحد، على أمل أن يعمل سيدها بطليموس بنصيحتها، وينهض لساعته من مقعده، وينجو بنفسه من موت مدبر له... ولكن بطليموس الملك كان ثملًا مثل كاليكولا الإمبراطور، ومثل غيره من المدعوين جميعًا، من الرومانيين والموريتانيين على السواء! فبدلًا من أن يفعل ما أوصته به الوصيفة الوفية، رفع رأسه ووقف مترنحًا، وأرسل في فضاء القاعة قهقهة عالية، وقال مخاطبًا كاليكولا:

– أسامع أنت يا قيصر ما تقوله هذه الفتاة؟ أسامع أنت؟ تقول أنك عازم على قتلي!.. إنها مجنونة يا قيصر... وهي التي تستحق الموت لأنها تفتري على مولاها... إنها...

ولكن «كاليكولا» لم يترك ضيفه الملك يسترسل في هذيانه: فوثب من أريكته وثباً، وأشار إلى الفتاة فأطبق عليها الحراس وأخمدوا أنفاسها وجروا جثتها بين الموائد إلى حيث أنتصب قيصر واقفاً، وعيناه تقدحان شرراً، والزبد يسيل من فمه وهو يقول مخاطبًا ضيفه الموريتاني «صدقت يا بطليموس، إنها تستحق الموت... ولقد لقيت ما تستحق، كما ترى... ولكن... صدقت بورفورا أيضًا أيها الملك، فيما ذهبت إليه...»

وبإشارة من الإمبراطور الخليع السكران، أطبق الحراس أيضًا على بطليموس الملك، ومزقوا جسده بالخناجر والسيوف...

كان ذلك في سنة ٤٠ للميلاد، وقد أصدر الإمبراطور كاليكولا أمره، بعد مصرع غريمه، بجعل مملكة موريتانيا ونوميديا المتحدة ولاية رومانية.

ولما بلغ الملكة «أورانيا» خير الفاجعة التي حلت بها، أقسمت ألا تدع الإمبراطور قاتل زوجها يشفي غليله منها، ويشيع نهمة إلى المال بالإستيلاء على ثروتها، ففرت من عاصمتها إلى الجبال القريبة، وأعتصمت فيها، وقد مرت شهور حاول فيها رسل «كاليكولا» الإتصال بالملكة الهاربة، والبحث عن الكنوز المخبأة... ولكن عبثًا... حتى إذا ما أنفضى عام واحد على مصرع «أبن القمر» سقط الإمبراطور نفسه قتيلًا بأيدي أعوانه، فأستراح العالم من شروره...

أما «أورانيا» الموريتانية وكنوزها، فقد أسدل عليها ستار كثيف من النسيان: إلى أين ذهبت؟ وأين ماتت؟ وكيف أخفت كنوزها؟

لقد ماتت دون أن تطلع أحدًا على سرها، ولم يتكلم أحد من الذين لازموها في المرحلة الأخيرة من مراحل حياتها، في الجبال الشاهقة، المشرفة على «تاماكا»..

وما «تاماكا»، قلعة موريتانيا القديمة، غير «تطوان»، عاصمة الشمال في المغرب العربي الأقصى اليوم...

فلو بحث الباحثون، ونقب المنقبون في جبال تطوان بالمغرب، لقادتهم الصدف إلى العثور على رفات زوجة «أبن القمر» بين أكداس الذهب والحلى والجواهر التي دفنت معها!

ثورة على روما

«الحرية مع الفقر والشقاء خير من العبودية
مع الغنى والرخاء!

سكتت المرأة بعد أن أفرغت ما في جعبتها من أقوال وأدلة لإقناع الرجل بأن يعمل في الحال بنصيحتها. وسكت هو بعد أن وافق على رأيها، وناقشها لا في صواب ذلك العمل الذي جاءت تطلب منه القيام به، بل في الوسائل التي يمكن الإعتماد عليها لتحقيقه...

فكر «تكفاريناس» طويلًا. ومالت عليه «سيفا» وأسندت رأسها على كتفه، وأحاطت علقه بذراعها العارية، وتنهدت مرة بعد مرة، فقيل له أن تنهداتها ليس لها غير معنى واحد: «إما الإصغاء إلى نصيحتها وإعلان الثورة، وإما القضاء على كل أمل في التحرر من النير الروماني في بلاد نوميديا الإفريقية!».

ولم يطل التفكير طويلاً، فقد أعتزم «تكفاريناس» أن يعمل. ولم يكن إعتزامه نتيجة إقناع المرأة له فحسب، بل كان أيضًا تلبية لنداء خفي ظل الرجل يسمع هاتفه بهيب به آناء الليل وأطراف النهار، ويطن في أذنيه مرددًا بلا إنقطاع: «الحرية يا نكفاريناس!.. الحرية لوطنك نوميديا، حتى ولو كانت مصحوبة بالفقر والشقاء، خير ألف مرة من العبودية في ظل الحكم الأجنبي المصحوب بالغني والرخاء... ».

ثم يردد الصوت الخفي أيضًا: «يجب ألا تكتفي بالتفكير في نفسك وحدها يا تكفاريناس، بل عليك أيضًا أن تفكر في وطنك... أنت جندي في جيش روما، وبلادك مستعمرة رومانية... وخير لك ألف مرة أن تكون ثائرًا في الجبال لتحطيم القيود التي تكبل حرية بلدك من أن تبقي جنديًا تتلقى الأوامر من جلاد بلدك!».

أصوات خفية، أضيف إليها الآن صوت آخر، ليس خفيًا، بل هو مسموع ترن نبراته رنينًا عذباً في الأذن، وينطلق من فم جميل، هو فم تلك المراة الساحرة، التي جاءت تقنع تكفاريناس بأن ينفذ ما يجول في خاطرها وفي خاطره أيضاً...

الثورة لتحرير نوميديا من حكم الرومان، ثم مواصلة القتال لتحرير أفريقية كلها، وضمها في دولة تمتد على الساحل الشمالي للبحر المتوسط، من حدود مصر شرقاً، إلى مياه المحيط غربًا...

وتكفاريناس واحد من أبناء نوميديا، أستهوته مظاهر البذخ في روما، وخدعته الوعود التي بذلها له الحكام الرومانيون في بلاده، فأنخرط في سلك الجندية، وأصبح خادمًا من خدم روما، ومحاربًا في صفوف جيشها، ومنفذًا لإرادتها في بلاده...

أصبح سلاحًا من أسلحة الغريب التي ترغم القريب على الخضوع والخنوع...

وعين مسرفًا على تنظيم حلقات المصارعة في روما، فهاله ما رآه

من ظلم وقسوة وإستهتار بالحياة. وأثار نقمته وغيظه إستقدام بعض مواطنيه من إفريقيا ليشتركوا في تلك الحفلات الصاخبة الهمجية التي كان المصارعون يقتتلون فيها لإرضاء قيصر وشعبه. وإرواء تعطش الرومانيين إلى الدماء المسفوكة!

وتساءل نكفاريناس: «أينور هؤلاء المصارعون يا نرى ويحملون السلاح معي لمحاربة الطغاة؟».

رأي عذاب مواطنيه عن كثب: رآهم يئنون من وطأه العبودية في وطنهم الأفريقي، ورآهم يموتون في ساحات المصارعة بروما، فتألم...

وإذا به ذات يوم يسمع ذلك الهاتف الذي أصاب به أن يتور ليرفع الظلم عن أولئك المواطنين...

أما هي، المراة التي ذاع صيتها في نوميديا، وأنتقل إلى روما فأقتحم القصور الفاخرة، وبلغ مسامع الإمبراطور، فهي من بنات نوميديا أيضًا، مثل تكفاريناس. ومعروف عن أسرتها أنها جاءت في قديم الزمان من جزيرة العرب، وأستوطنت جبال «أوريس» في بلاد نوميديا، وأنها هي «سيفا» كانت في وقت من الأوقات وصيفة الإمبراطورة في قصر «تيبيريوس قيصر» بروما، ثم هربت من عاصمة الإمبراطورية وعادت إلى وطنها، على أثر مصرع أفراد أسرتها جميعهم، في عراك مع الجند الروماني.

قتل الرومانيون أباها، وأمها، وأخوتها الأربعة، وأحرقوا مزرعتهم الصغيرة في سفح الجبل على مقربة من «سيرتا» عاصمة نوميديا...

وهربت سيفا من روما عائدة إلى بلادها وفي صدرها حقد يغلي، وفي رأسها فكرة تسعى لتحقيقها...

ووجدت تكفاريناس في طريقها فأدركت في الحال أنه الأداة التي أعدتها لها السماء، لكي تحقق بها الفكرة، وتشفي غليل الحقد في نفسها!

وتوالت الأحاديث بين الجندي الراغب في أن يكون زعيمًا لبلاده وقائدًا لثورة، والفتاة الساعية إلى الإنتقاء لأهلها والثأر للدم المسفوك.

وتم الإتفاق بين الإثنين، لأن كل واحد منهما جاء للآخر بما كان ينقصه... وهكذا تتم الثورات: كل واحد من الذين يشتركون فيها يقدم شيئًا مما تعتمد عليه القيادة لضمان النجاح...

كانت سيفا في حاجة إلى قائد يسير بالمجاهدين إلى الميادين فوجدته في شخص تكفاريناس...

وكان تكفاريناس في حاجة إلى المادة التي لا بد منها لتغذية الثورة بالسلاح والمؤن، فجاءته بها سيفا...

هربت من قصر تيبيريوس قيصر ولكنها حملت من الجواهر والحلى والحجارة الكريمة ما يكفي لشراء كل ما يوجد في أفريقية من أسلحة، وكل ما يحفظ من مؤن!..

وقالت لتكفاريناس:

– أنت في حاجة إلى المال وها هو ذا المال بين يديك...

ووضعت عينيها أمام عينيه، وشفتيها أمام شفتيه، وأطلقت عبارة الإغراء الأخيرة من فمها العذب:

– وانت في حاجة إلى الحب، وها هو ذا الحب أيضًا يطوقك بذراعيه!..

وكانت القبلة الحارة التي مر بها الرجل والمرأة عهدهما، فطبعًا الحب المتبادل بطابع الثورة، وطبعًا الثورة بطابع الحب...

أصبحا عشيقين قبل أن يصبحا ثائرين...

وأختفى تكفاريناس عن الأنظار، وأختفت معه سيفا...

وفجأة، هبت العاصفة، وأرتفعت الصيحات في أنحاء نوميديا كلها في الجبال وفي السهول على السواء: صيحات الثائرين وقد تدفقوا من كل فج وصوب على مرابط الجنود الرومانيين، وصيحات الجنود الذين فوجئوا بانفجار ما كان أحد منهم ينتظره!

أعد تكفاريناس عدته بمهارة فائقة، وساعدته في ذلك سيفا الفاتنة الساحرة.

توافر المال لدى الرجل، بما حملته اليه المرأة من ثروة سرقتها من الرومان كما سرقها الرومان من البلدان التي يحتلونها، وبتوافر المال توافرت الأسلحة، وتدفقت المؤن، وتزايد عدد المقاتلين يوما بعد يوم...

وأنضم إليهم مئات من الأسرى والعبيد الذين جاء بهم تكفاريناس من روما، وبينهم عدد كبير من المصارعين!

طافت سيفا في المدن والجبال والحقول. في الحواضر والبوادي. على ساحل البحر وفي داخل البلاد. داعية مواطنيها إلى القتال في سبيل الحرية المنشودة والكرامة الغالية. فلبى السكان في نوميديا كلها نداء المرأة الداعية الى تلك المثل العليا...

وأنضم المتطوعون الثائرون إلى الجنود الذين تمكن تكفاريناس من إقناعهم بوجوب الإشتراك في الثورة، لأنها ثورة المحكوم على الحاكم، ثورة القريب على الغريب، ثورة المواطن على الأجنبي الدخيل، ثورة نوميديا على روما... بل ثورة كل ولاية رومانية على العاصمة الطاغية!

وكان بين أولئك الجنود رجال من مصر، ومن سورية، ومن فينيقيا، ومن بين النهرين، فضلًا على النوميديين والليبيين وغيرهم من سكان إفريقية الخاضعة للحكم الروماني...

من أولئك جميعًا، تألف جيش الثورة التي قادها تكفاريناس مدة ثمانية أعوام، والتي أوشكت أن تقوض أركان الإمبراطورية وتزعزع كيانها...

نشبت الثورة في سنة ١٦ وظلت مشتعلة إلى سنة ٢٤ للميلاد، وفي تلك الثورة، حاربت كتيبة من الفارسات بقيادة سيفا، فأخذت المرأة نصيبها مع الرجل، من القتال في سبيل الوطن...

وفي المكان الذي أتخذه قائد الثورة مركزًا لقيادته، جمع أعوانه المقربين وزعماء القبائل، وقطع الجميع على أنفسهم «عهد الدم» بأن أقسموا فيما بينهم على أن يواصلوا القتال حتى يبلغوا الغاية المنشودة أو

يضحوا في سبيلها بالحياة. ووقفت بينهم «سيفا» خطيبة القائد، وقدمت لهم وعاء فيه دم فائر، وطلبت منهم أن يغمسوا أيديهم فيه توكيدًا للعهد المقطوع، وللقسم الذي ربطوا أنفسهم به... .. وهذه عادة قديمة لا تزال إلى أيامنا هذه حية في بعض أنحاء الشرق الأدنى وإفريقية الشمالية...

وأنطلق الثائرون إلى ميادين القتال عملاً بذلك العهد الذي قطعوه!

قسم تكفاريناس جموعه إلى كتائب وجماعات قليلة العدد سريعة الحركة، وراح يهاجم الرومان في كل مكان وفي آن واحد...

وأرسلت روما لمقاتلة الثوار أشهر قوادها، منهم فوريوس كاميليوس، ولوسيوس برونوس، وجونيوس بليزوس، وغيرهم من دهاة الحرب وأبطال الميادين...

غلبهم تكفاريناس أو غلبوه، وكان بعد كل هزيمة يتراجع إلى جبال أوريس ثم ينطلق منها من جديد ليهاجم ويقتحم وينتصر...

جرح خمس مرات وهو في طليعة الصفوف، ووقع مرة أسيرًا في أيدي كتيبة رومانية ولكنه أفلت من الأسر بمعجزة. وجرحت سيفا مرتين أمام أسوار «سيرتا» العاصمة التي كانت دائمًا تحرض الثائرين على أخذها عنوة من الرومان...

وهال الإمبراطور تيبيريوس أن تعتري الإمبراطورية تلك الهزة العنيفة، وأن تعجز جحافله عن قمع ثورة «الإفريقيين» وإعادة المحكومين إلى حظيرة الطاعة، فأصدر أوامره بأن تجرد الدولة جميع قواتها، وأن تنقل الأموال بلا

حساب، ويرسل الجنود إلى الموت فوجًا بعد فوج، حتى يفنوا جميعًا وتجف خزينة المال – أو يؤتى بقائد الثورة الأفريقية ذليلًا مكبلاً بالحديد!..

ويؤتي معه بالمرأة التي عدها الإمبراطور محرضة على تلك الثورة الخطرة!

وكان في النهاية للإمبراطور ما أراد. وتغلبت الكثرة على القلة، ووفرة السلاح والفن العسكري على الشجاعة المفتقرة إلى العلم والنظام...

عهد الإمبراطور بقيادة الجيوش الرومانية إلى أشهر رجال الحرب في ذلك الوقت. القنصل «دولابيلا».

ودولابيلا هو الرجل الذي شاءت الأقدار أن تخمد ثورة تكفاريناس على يده، في سنة ٢٤ للميلاد، أي بعد نشوبها بثمانية أعوام!

كان الثائرون يحاصرون مدينة «توبرسيكوم» فأرغمهم دولابيلا على فك الحصار، وهزمهم في معركة دموية هائلة، أضطر بعدها تكفاريناس إلى التراجع لإعادة تنظيم جيوشه...

وبالقرب من مدينة «أوزيا» لحق به الروماني العنيد، وهزمه مرة أخرى، فتراجع نكفاريناس ثانية ولكن صفوف رجاله كانت قد تضعضعت.

عبثًا حاولت سيفا، في تلك المعركة الفاصلة، أن تحمل الثائرين على الصمود في وجه الرومان، بأن تهجم مرة بعد أخرى على رأس كتيبة النساء المحاربات...

فقد عجز الإفريقيون وحلفاؤهم عن الصمود. وشعر تكفاريناس بأن

النهاية قد أقتربت، وأنه واقع لا محالة في أيدي أعدائه الرومانيين.

و نادي رفيقته في الجهاد، وشريكته في السراء والضراء...

ولبت سيفا نداءه...

تراجع الثائرون عائدين إلى جبالهم بعد أن تكاثرت عليهم جموع الرومان...

وبعد المعركة، طاف القائد دولابيلا وأعوانه في أنحاء الميدان حيث تكدست الجثث...

وبين تلك الجثث، عثر الروماني على الجثتين اللتين قيل له أنهما جثتا تكفاريناس وصديقته سيفا...

كانت الجثتان متعانقتين...

وكانت الدماء تتدفق من جرحين عميقين، جرح في صدر الرجل، وجرح في صدر المرأة...

عمد تكفاريناس إلى الإنتحار خوفًا من الوقوع في الأسر...

وجارته سيفا فيما أقدم عليه، فطعنت نفسها بالخنجر الذي مزق به حبيبها صدره...

ميتة واحدة، بخنجر واحد، في مكان واحد...

وأختلطت دماء الشهيدين وأمتزجت على أرض واحدة...

عهد الدم نفذ إلى آخره!

لم تسفر ثورة تكفاريناس عن تحرير نوميديا، ولكنها كانت مثلًا رائعًا ضربه الثائر البطل لطلاب الحرية التي هي دائمًا وفي كل مكان وليدة الثورات...

ثورة تخمد... وثورة تنجح!

فشل يعقبه فوز في الغد!

ونوميديا التي ثار تكفاريناس، وساهمت معه سيفا، من أجل تحريرها، تدعي اليوم «الجزائر».

وعاصمتها «سيرتا» هي اليوم «قسنطينة».

أما جبال «أوريس» فلا تزال تحمل أسمها، ولا تزال إلى أيامنا هذه موطن البطولة، والبركان المتأجج دائمًا بنيران الثورات... في سبيل الحريات.

وفي وهادها ووديانها أنطلقت الرصاصات الأولى في ثورة الشعب الجزائري، في سنة ١٩٥٤.

وهي الثورة التي أنتهت بنصر مبين، وبإسترجاع الإستقلال والسيادة من غاصبيهما!

قديس وحورية

أخذ الإفرنج من عرب تونس قديسًا ميتا، وأرسلوا إليهم حورية حية!...

بلغ رسل الإمبراطور شرلمان المرحلة الأخيرة من المراحل الشاقة التي تجشموا خلالها المتاعب برًا وبحرًا، للوصول إلى القيروان، وأداء المهمة التي عهد بها إليهم العاهل العظيم، وكانوا أكثر من عشرين شخصًا بينهم ثلاث نساء وبعض الرهبان، ممن سبق لهم أن زاروا أرض إفريقيا من قبل.

وقوبل ذلك الوفد الإفرنجي في الإمارة العربية بالترحاب والإكرام. فإن صاحب إفريقية في ذلك الوقت، إبراهيم بن الأغلب، كان على أحسن ما يكون من الود والوفاق مع شرلمان إمبراطور الغرب، المالك في فرنسا وجرمانيا وإيطاليا، بالرغم من إشتباك الإفرنج وعرب الأندلس في حروب مستمرة لا تنقطع حلقاتها.

وكان العباسيون المالكون في بغداد، يحاولون منع فلول الأمويين وأنصارهم من بسط سيطرتهم على أطراف الدولة العربية في الغرب، ولهذا فقد عهد هرون الرشيد في سنة ١٨٣ للهجرة، الموافقة لسنة ٨٠٠ للميلاد، إلى إبراهيم بن الأغلب الجزائري، بالولاية على «إفريقية» التي كانت تضم في ذلك الوقت جزءًا من الجزائر، والقطر التونسي،

وطرابلس وبرقة. وكان هرون الرشيد يأمل أن يظل أبن الأغلب وخلفاؤه على ولائهم للعباسيين، بعد أن أستقل الأدارسة في المغرب الأقصى والأمويون في الأندلس.

وأنشأ إبراهيم في إفريقية ملكًا واسعًا، وشيد في مدينة «القيروان» التي أتخذها عاصمة له، عرشًا توارثه أبناؤه وأحفاده من بعده، من سنة ٨٠٠ الى ٩١٠ للميلاد. (١٨٣ الى ٢٩٨ هجرية) فكان عهد الأغالبة هذا أمجد حقبة في تاريخ القطر التونسي، مقر حكمهم ومحور نشاطهم. فرأس الأسرة الأمير إبراهيم بن الأغلب، رسم الخطوط الكبرى لسياسة إصلاح وتعمير وإنشاء، نفذ بعضها في حياته، وترك لخلفائه من بعده مهمة إنجاز البعض الآخر، فأنجزوه على أحسن وجه. وفي بضع عشرات من السنين، أحيطت السواحل التونسية بشبكة من القلاع والحصون، وأخترقت أرض تونس الطرق والقنوات، وشيدت في العاصمة وضواحيها الدور الفخمة، والقصور المنيفة، وغرست في جميع الأنحاء بساتين الفاكهة من كل نوع، جيء بها من مصر والشام ولبنان، وأنطلقت القوافل شرقًا وغربًا، لحمل منتجات إفريقية، وتجيء بغيرها. وغمرت الدولة الفتية موجة من النشاط والرخاء لم تعرفها من قبل.

إلى تلك الدولة الناهضة السعيدة الموفقة، أوفد الإمبراطور شرلمان رسله، لمقابلة المجالس على عرش القيروان، ووضع الهدايا الثمينة بين يديه، والإفضاء إليه برجاء لا يصعب عليه تحقيقه.

جاء وفد شرلمان إلى القيروان ليطلب من إبراهيم بن الأغلب

السماح للإفرنج بأن يفتحوا قبر الأسقف «سبريانوس» ويضعوا رفاته في صندوق، ويعودوا به إلى فرنسا حيث يرغب الإمبراطور شرلمان في دفنه داخل كنيسة مع رفات آبائه وأجداده!

أما سبريانوس، فهو من الأبرار والأخيار. ولد بمدينة قرطاجنة بإفريقية سنة ٢١٠ ميلادية. وقضى حياته منصرفًا إلى أعمال البر والإحسان. وتولى أسقفية قرطاجة. ولما مات شهيدًا بعد أن عذبه الرومان حتى أزهقوا روحه، دفنه المسيحيون في مقر أسقفيته بقرطاجنة، ومجدوا –منذ ذلك الوقت– ذكراه، وعدوه من القديسين. وهم يحتفلون بعيده في السادس عشر من شهر سبتمبر.

وكانت لهدا القديس مكانة خاصة في نفوس رعايا شرلمان من أبناء فرنسا، فألحوا على مليكهم، بعد مرور خمسمائة عام على وفاة القديس، بأن يسعى لنقل رفاته إلى فرنسا، فأوفد رسله إلى صديقه صاحب إفريقية، ليفضوا إليه بأمنية العاهل الشيخ.

ونزل الرسل الإفرنج ضيوفًا على الأمير إبراهيم في قصره بجوار القيروان وهو القصر الذي سمي فيما بعد بقسر «العباسية» وبعد إنقضاء ثلاثة أيام، أقيمت لوفد شرلمان مأدبة فاخرة، وأعلن الأغلبي أنه ينزل على رغبة صديقه شرلمان، ويسمح لرجاله بأن ينقبوا عن ضريح القديس المسيحي وينقلوا رفاته إلى بلادهم.

كان بين أعضاء الوفد الإفرنجي رجل يدعي «البارون كلود» وهو من أشراف القصر في بلاط الإمبراطور شرلمان، أقام مدة من الزمن في

بلاد الأندلس، وتعلم اللغة العربية، وعلمها لأبنائه. فألحقه الإمبراطور بالوفد الذاهب إلى إفريقية ليكون مترجمًا بين الإفرنج والعرب في القيروان، وألحت «كلوتيلد» أبنة «كلود» على أبيها في أن يأخذها معه في رحلته الطويلة الشاقة، فتردد أولًا، ولكنه أضطر إلى الإذعان أمام إلحاح الفتاة. وهكذا وجدت «كلوتيلد» نفسها في القيروان، ومعها إثنتان من وصيفات القصر، بين عشرين رجلاً من بني قومها، في بلد مسلم، وفي بلاط ملك عربي!

وكان إبراهيم بن الأغلب من ناحيته قد أتخذ الحيطة لتأمين التخاطب بين رسل شرلمان، وأبناء البلاد من رعاياه. فعهد إلى واحد من أخصائه بأن يتولى الترجمة بين الفريقين.

ذلك الرجل هو «فياض الشهبي» النصراني، وهو غساني جاء أبوه من الشام وكان يحترف الطب، فأستقر به المقام في القيروان، حيث مارس مهنته، وعلمها لإبنه من بعده، فنشأ فياض في عاصمة إفريقية طبيبًا مثل أبيه، محبوبًا من الناس، مشمولا بعطف الحكام، وقد قربه إبراهيم بن الأغلب منذ اليوم الذي آلت إليه فيه الولاية من هرون الرشيد، فأصبح فياض طبيب القصر والأسرة المالكة.

كان الطبيب الشاب في الخامسة والعشرين من العمر لما وفد على القيروان رسل شرلمان قادمين من فرنسا. وشاءت الأقدار أن يلتقي ذلك النصراني الشامي بالنصراني الغربي »كلود» والد الفتاة «كلوتيلد»، وأن يشترك الثلاثة، الطبيب العربي، والبارون الإفرنجي وأبنته الحسناء في مهمة

واحدة، وهي تأمين التفاهم بين الفريقين، الضيوف الذين لا يتكلمون غير لغتهم الفرنسية، وأهل البلاد الذين لا يجيدون غير لغتهم العربية.

وقام الثلاثة بالمهمة خير قيام...

ومرت أسابيع، زار خلالها رسل شرلمان أنحاء الإمارة الأغلبية، ووقفوا مشدوهين إعجابًا أمام المنشآت العمرانية التي تنبت من الأرض وتنمو كما ينبت العشب وينمو الشجر، وراح بعضهم يسأل ويستفهم ويستقصي، لكي يحمل إلى سيده خبر تلك الأعمال العمرانية على أمل أن يحذو شرلمان في وطنه حذو صديقه الأغلبي في إفريقية، ويفعل هناك ما يفعله إبراهيم هنا.

قبل أن يبحر الرسل عائدين إلى بلادهم، حاملين إلى الامبراطور الأمانة التي أنتشلوها من جوف الأرض في قرطاجنة دعاهم الأمير الأغلبي إلى مأدبة وداع أقيمت في القصر، وحضرها عظماء المملكة والقواد والأعيان، وأمر إبراهيم بأن تنحر الذبائح في ذلك اليوم وتوزع لحومها على سكان القيروان جميعاً، في الحدائق والبساتين، كيلا يحرم أحد من الرعايا، من الإشتراك في توديع الضيوف الأغراب قبيل رحيلهم معززين مكرمين!

وفي وسط المأدبة، فوجئ المدعوون بإعلان خبر ما كان أحد ينتظره: ذلك هو خبر رحيل الطبيب فياض الشهبي مع رسل شرلمان إلى فرنسا، حاملًا معه دواء للإمبراطور، هدية من الأمير إبراهيم أبن الأغلب.

فقد علم الأمير من رجال الوفد الإفرنجي، أن مليكهم الشيخ

يشكو من أرق يحرمه من النوم، ويسبب له صداعًا لا يطاق، ويوهن ما تبقى من قواه، وهو في سن الشيخوخة. فطلب الأمير من طبيبه الشامي علاجًا لما يشكو منه صديقه، وأعد الطبيب العلاج في شكل مزيج من عصارة الأعشاب والفواكه، ووضع إبراهيم بن الأغلب كمية وافرة من ذلك الدواء في قارورة من الزجاج بكسوها غطاء من الذهب الخالص لإرسالها هدية إلى شرلمان.

وطلب الطبيب بإلحاح أن يحمل الهدية بنفسه إلى العاهل الإفرنجي. فأجابه الأمير إلى طلبه، وسمح له بأن يرافق الرسل في عودتهم إلى وطنهم.

وأرسل إبراهيم أيضًا إلى صديقه شرلمان جوادًا عربياً أصيلًا، وسيفًا قبضته مرصعة بالجواهر، وسرجًا من صنع القيروان!

شفى الإمبراطور شرلمان من العلة التي كان يشكو منها، وأستعاد راحته ونشاطه وهدوء أعصابه، وصار ينام نومًا عميقًا لا تقلقه أحلام كئيبة ولا يقطعه عليه أرق مزعج: كل ذلك بفضل العلاج الذي حمله إليه فياض الشهبي، طبيب الأغالبة الغساني.

وفي سنة ٨١٢ للميلاد – الموافقة لسنة ١٩٦ للهجرة – عاد فياض إلى القيروان، فإذا به يجد مولاه وصديقه إبراهيم بن الأغلب على فراش الموت!

حاول أن ينقذه فلم يفلح. وأبدى المريض إرتياحه لما قصه عليه طبيبه من نجاحه في مهمته لدى الإمبراطور الإفرنجي. وتضاعف سروره

لما أخبره فياض بأنه لم يرجع إلى القيروان وحده، بل بصحبة زوجة إفرنجية رضيت بأن تربط حياتها بحياته، وترحل معه من وطنها إلى وطنه.

ولم يجد إبراهيم صعوبة في معرفة أسم تلك الزوجة، فقد أنطلق الأسم من بين شفتيه همسًا:

– كلوتيلد؟

وأجاب فياض الشهبي:

– نعم ، كلوتيلد يا مولاي... فقد مات أبوها، وأصبحت وحيدة في هذا العالم... وهي نصرانية مثلي، وتجيد اللغة العربية مثل أبيها...

وقال إبراهيم:

– وستصبح مثلك انت عضواً صالحًا في جسم هذه الأمة التي تتبناها...

– نعم، لأنني سأعلمها الطب، لكي تنصرف إلى معالجة النساء المريضات بينما أنصرف أنا إلى معالجة المرضى من الرجال!

وسكت إبراهيم لحظة، ثم أردف قائلاً:

– لقد أخذ منا شرلمان قديسًا ميتًا، وأعاد إلينا حورية حية!

وصدق إبراهيم بن الأغلب: فإن زوجة الطبيب فياض الشهبي كانت على جانب عظيم من الجمال والذكاء، وقد أستقرت في القيروان تلك الحورية المولودة في فرنسا، بينما أستقر في فرنسا القديس سبريانوس المولود في أفريقية!

وقد ذكر بعض المؤرخين الإفرنج خبر علاج الإمبراطور شرلمان من الأرق والصداع، على يد طبيب يدعى «فايول».

ولم يكن «فايول» طبيبًا فرنسيًا، بل كان عربياً، وهو «فياض الشهبي!».

وقد مات شرلمان في سنة ٨١٤ للميلاد الموافقة لسنة ١٩٨ للهجرة وسبقه إلى العالم الآخر صديقه وحليفه إبراهيم بن الأغلب، في سنة ٨١٢ للميلاد الموافقة لسنة ١٩٦ للهجرة.

صهريج القيروان

تلعب الأقدار بمصائر الأفراد كما تلعب بمصائر الجماعات، وكثيرًا ما يساعد الإنسان الأقدار في تصرفاتها بدون قصد منه!... .

أصغى الأمير «أبو إبراهيم أحمد الأغلبي» بإهتمام ممزوج بالعطف إلى ما قصه عليه الطبيب «سادو» الذي جاء إلى مدينة «القيروان» من بلاد الإفرنج، ورحب الأمير العربي بالغريب أيما ترحيب. وقال بعد أن فرغ من حديثه:

– أن أبوابنا مفتوحة دائمًا لرجال العلم أيها الطبيب الفاضل، ولهذا فإننا نكرم وفادتك، ونسهل لك مهمتك، وننزلك ضيفًا علينا، مدة إقامتك بين ظهرانينا في القيروان عاصمتنا، وفي الأرض الأفريقية الخاضعة لحكمنا... فالطب علم من العلوم التي وضعناها تحت حمايتنا، وقد أخذنا بيد المنصرفين إلى هذا العلم لأن العناية بصحة الافراد واجب على الحكام... وقد أرسلت في طلب إمرأة ذاع صيتها في البلاد الأفريقية، وأشتهرت بمعرفة خصائص الأعشاب، ومداواة الناس بالعقاقير المستخلصة منها، وهي تدعى «نفيسة التلمسانية» التي ستكون لك خير دليل في بحثك ودرسك وتنقيبك...

تزاحمت آيات الشكر على لسان الطبيب الأفرنجي، وقال للأمير الكريم الذي رحب به ذلك الترحيب الحار:

– لقد طفت البلدان والأمصار أيها المولى، جامعًا ما حصلت عليه من معلومات وأدوية لعلاج مختلف الأمراض، وسأكون سعيدًا بأن نتبادل –الطبيبة الأفريقية وأنا– معارفنا وتجاربنا المسلحة المرضى والمعذبين...

وعلى حافة «صهريج القيروان» جلست في اليوم التالي «نفيسة التلمسانية» ومعها الطبيب «سادو» وراح الإثنان يتجاذبان الحديث في العلم الذي أنصرفا إلى دراسته...

فما هو «صهريج القيروان؟» ومن هي «نفيسة؟» ومن هو «سادو»؟

كانت الأحوال في «إفريقية» – وهي اليوم «تونس» مضطربة مفعمة بالقلق وأسباب الفتن، في أواخر القرن الهجري الثاني، فأدرك الخليفة العباسي هرون الرشيد أن الحكمة تقضي بإختيار حاكم يمتاز بعدله وصرامته ومرونته، يعيد إلى النفوس الطمأنينة، وإلى البلاد الاستقرار، وإلا ضاعت إفريقية من العباسيين، كما ضاعت منهم الأندلس وبلاد المغرب الأقصى، حيث تولى الأمر الأمويون والأدارسة...

ووقع إختبار هرون الرشيد على بطل من أبطال الحروب، كان أبوه «أبن سليم الأغلب» نصيرًا للعباسيين وقت كفاحهم في سبيل الخلافة، ذلك البطل هو «إبراهيم بن الأغلب» الذي هاجر من الجزائر –حيث

كان يقيم– وقصد إلى تونس وتولى الحكم فيها بيد من حديد... وأتخذ مدينة «القيروان» عاصمة له، وذلك في سنة ١٨٣ للهجرة، الموافقة لسنة ٨٠٠ للميلاد.

وكان إبراهيم بن الأغلب بعيد النظر ثاقبة، عالي الهمة كريمًا سخيًا طموحًا، فأقدم على سلسلة من الأعمال العمرانية، خلال السنوات الإثنتي عشرة التي قضاها في الحكم، وأصبحت «القيروان» في عهده مدينة زاهرة مزدحمة بالسكان، تشع منها أنوار المعارف، ويقصد إليها العلماء والتجار من كل فج وصوب...

وتوارث «الأغالبة» الحكم فأنشأوا أسرة مالكة، بلغ عدد أمرائها أحد عشر أميرًا، من سنة ٨٠٠ إلى سنة ٩١٠ للميلاد (١٨٣ إلى ٢٩٨ هجرية).

وخيم الأمن على إفريقية في عهد هؤلاء الأمراء، وأزدهرت الزراعة والصناعة والتجارة، وأنتظمت وسائل النقل، وأنشئت المدن، وأستخرجت المعادن، وشيدت المساجد ودور التعليم، وأحيطت الإمارة بحلقات متواصلة من الأسوار والقلاع والحصون، فضلاً عن القصور التي إزدانت بها القيروان وغيرها من المدن...

وفي سنة ٨٥٦ ميلادية الموافقة السنة ٢٤٢ للهجرة – تولى الحكم أبو إبراهيم أحمد الأغلبي، حفيد إبراهيم مؤسس الأسرة، فسار على منهج جده، وعنى عناية خاصة بتشييد القصور وإقامة الجسور، وحفر الأقنية والأحواض، لإختزان الماء، وتوسيع ما حفره جده منها...

وهذه السياسة «المائية» مفخرة من مفاخر الأغالبة، وقد ظلت عدة أجيال، مصدر خير ونعمة للقطر التونسي بأسره...

ولا تزال بقايا تلك الأقنية والأحواض –أو آثارها– باقية إلى أيامنا هذه، ومنها الحوض الكبير المستدير، المعروف بإسم «صهريج القيروان» والذي يرجع الفضل في بنائه إلى أبي إبراهيم أحمد الأغلبي. وكان ذلك الحوض يحفظ الماء للشرب والري على السواء، وحوله الحدائق والحقول والبساتين، حيث يخرج سكان القيروان للنزهة والترويح عن النفس...

أما «نفيسة التلمسانية» فقصتها أغرب من الخيال: فقد كانت جدتها لأمها إفرنجية من مرسيليا، دفعتها الأحداث إلى حياة لم تكن البيئة التي عاشت فيها تهيئها لها. فرافقت الجنود الإفرنج في عهد «الإمبراطور شرلمان» إلى بلاد «الأندلس»، وبقيت فيها لأنها علقت بحب شاب عربي، تزوجته وهجرت من أجله قومها وبلادها وغيرت دينها. ولكن الرجل الذي ضحت من أجله بكل ذلك، لم يكن أهلاً للتضحية، فقد أقترف جريمة قتل، وفر من وجه العدالة، وترك زوجته وحيدة في بلاد ليست بلادها، وقوم ليسوا قومها. وأنقطعت أخباره عنها، فهامت على وجهها، حاملة بين ذراعيها طفلة صغيرة، هي ثمرة ذلك الغرام، والزواج. وأنطلقت تضرب في طول الأرض وعرضها، فأجتازت بلاد المغرب، ووصلت إلى الجزائر، حيث قيض لها الله شخصًا أنقذها مما كانت فيه، فأستخدمها مربية لأبنائه في مدينة «تلمسان» وعنى

بطفلتها، حتى إذا ما شبت وترعرعت، زوجها لواحد من أبنائه.

ولكن الأقدار ظلت تلاحق المرأة وأبنتها، فقد قتل أفراد الأسرة التلمسانية في الحروب والثورات، ولم يبق منهم على قيد الحياة غير أبنة المرأة الأفرنجية وزوجها العربي «جابر» فهاجر الإثنان إلى الشرق، قاصدين إلى بلد ينسيان فيه ما حل بذويهم من ويلات، وأستقر بهم المقام في القيروان، حيث كان الأمن مستتبا، بفضل الأغالبة الميامين العادلين.

وعرف الرجل كيف يكتسب إحترام الناس وعطف الحكام، فأنصرف إلى ممارسة الطب والمداواة بالأعشاب، وقد ورث ذلك الفن عن أمه الإفرنجية التي أخذته من زوجها الأول بالأندلس.

ومات «جابر التلمساني» في عهد أبي إبراهيم الأغلب بالقيروان، ولحقت به زوجته، تاركين فتاة وحيدة هي «نفيسة التلمسانية» التي نشأت تمارس الطب والمداواة بالأعشاب أيضًا مثل أبيها وأمها وجدتها...

وذاع صيت «نفيسة» في البلاد التونسية، وشملها أبو إبراهيم الأغلب بعطفه ورعايته، وآثرت أن تعيش وحيدة بلا زواج ولا ولد، في كنف الأمراء الأغالبة. فأعتكفت في كوخ قريب من باب تونس بالقيروان، باحثة دارسة منقبة، تعالج المرضى بعقاقيرها المستخلصة من الأعشاب وثمار الأشجار، ينثر عليها الأغالبة خيراتهم، وتنثر هي الرحمة من حولها..؟

وكانت «نفيسة» يوم وفد الطبيب الإفرنجي «سادو» على القيروان في منتصف العقد الثالث من العمر!

وأما «سادو» فإن قصته لا تقل غرابة من قصة زميلته الطبيبة التلمسانية!

فقد وفد جده لأبيه من الأندلس إلى بلاد الإفرنج، في عهد الإمبراطور شرلمان أيضًا، وفي ظروف غامضة... وهناك أتخذ الرجل لنفسه وطنًا غير وطنه، وقومًا غير قومه، وديناً غير دينه... وكان طبيباً بارعاً في شفاء الأمراض بخلاصة الأعشاب... وقد تزوج إمرأة إفرنجية قتل زوجها في حروب الأندلس، وأنجب منها إبناً كبر ومارس الطب مثل أبيه، وأنجب الإبن طبيبًا ثالثًا، هو «بولس سادو» الذي عول – بعد إنقراض أسرته في بلاد الإفرنج – على الطواف في العالم، دارسًا باحثاً عن عقاقير جديدة، وأبواب يجهلها من فن الطب ومواساة المرضى...

كان أسم الجد الخارج من الأندلس إلى بلاد الإفرنج «وهب السعدي» وهو من أسرة تنتمي إلى نجد، وفدت على الغرب مع الفاتحين العرب. وعرف أبنه وحفيده فيما بعد بإسم «سادو» عند الإفرنج الذين أمتزجت بهم الأسرة العربية...

ولما خرج «بولس سادو» الطبيب العربي المتفرنج من مدينة «ليون» مقر أسرته، وأنطلق نحو الأندلس والساحل الإفريقي، معتزمًا قضاء حياته في سفر دائم وتنقل مستمر، وجد من الحكام الإفرنج والعرب على السواء، عطفًا وتقديرًا ومعونة، بالنظر إلى ما كان القوم عليه في ذلك العهد يحيطون به رجال العلم، وعلى الخصوص الأطباء منهم، من إكرام وإجلال...

وفي مدينة القيروان العربية الأغلبية، شاءت الظروف أن يلتقي الطبيب الأفرنجي بالطبيبة العربية، وأن يجمع بينهما الأمير «أبو إبراهيم الأغلب» صاحب تونس وحاكم إفريقية، ليواصلا معًا أبحاثهما ودروسهما في سبيل الإنسانية المعذبة!

وما كان أبو ابراهيم الأغلبي يعلم أنه يجمع بين طرفي خيط واحد وأنه يساعد الأقدار في لعبها بمصائر الناس!

مرة بعد مرة، على حافة «صهريج القيروان» جلست إذن نفيسة التلمسانية، وبولس سادو يتبادلان المعلومات ويتناقشان ويتجادلان في خصائص الأعشاب، وما تحويه من بلاسم شافية للعلل والأمراض...

وكانت حافة الصهريج ملتقى القيروانيين في نزهاتهم، فإنهم كانوا يخرجون من دورهم ومن مراكز أعمالهم في كل مساء، ويمرحون في الحدائق والبساتين والرياض، ينعمون بالنسيم المنعش ومنظر الخضرة وخرير المياه، بين الأشجار والقنوات والنوافير، يقطفون من الأثمار أشهاه ، ومن الأزهار أجملها، ويعقدون المجالس حلقات حلقات، هنا يتناقشون ويتجادلون، وهناك يفنون ويطربون، وهنالك يستلقون على الحشائش مرتاحين مطمئنين.

كانت الحياة في ظل حكم الأغالبة هنيئة هادئة، مفعمة بالعمل الصالح، والإطمئنان إلى الغد. وكانت إفريقية دولة عربية زاهرة، تجلب الخير لنفسها وتوزعه حولها، وكان أبو إبراهيم الأغلب ملكًا سعيدًا بسعادة شعبه، وكان شعبه سعيدًا بسعادة ملكه!

وظل الطبيب الإفرنجي أيامًا وأسابيع يطوف مع زميلته العربية، يزيدها علمًا وتزيده معرفة، وفي مساء كل يوم، يجتمع الإثنان على حافة الصهريج، لإستعادة إختبارات يومهما، وإبتكار لون جديد من ألوان العلاج والمداواة...

وفي ذات يوم، بعد عناء مضن وطواف طويل، جلس الإثنان كعادتها على الحافة المعهودة، وجعلا يتناولان الطعام، مما أعدته نفيسة من زاد...

وجنح بهما الحديث عن سيره المعتاد، عن الطب والأعشاب والعلاج، إلى أسرتها وأسرته، إلى ماضيها وماضيه.

وداخلهما القلق والإضطراب في خلال الحديث، وكلما توغلا فيه زاد الإضطراب وزاد القلق.

سألته عن أسمه، فروى لها ما يعرفه عنه. وسألها عن أسمها فروت له ما تعرفه عنه...

تحدث عن الأندلس، وعن خروج جده منها، وتحدثت عن بلاد الإفرنج وعن خروج جدتها من مرسيليا...

وقال لها أن أسم جده «وهب السعدي» وأن هذا الأسم قد تطور وتحول على السنة الأفرنج وأصبح «سادو». وقالت له أن أمها ذكرت لها وهي صغيرة ذلك الأسم أكثر من مرة!

وتكشفت لهما الحقيقة شيئًا فشيئًا، وتجلت أمام أعينهما تفاصيل المأساة ومراحلها مرحلة بعد أخرى!

لم يكن «وهب السعدي» غير زوج الإفرنجية التي خرجت من

مرسيليا وأستوطنت الأندلس. ولم يكن «بولس سادو» غير حفيد ذلك الطبيب الأندلسي الذي فر من وجه العدالة بعد إقتراف جريمته، تاركًا زوجته وطفلتها فريسة للأقدار...

نعم، أن «بولس» حفيد ذلك العربي الذي تخلي عن وطنه وعن قومه وعن دينه، ونفيسة حفيدة تلك الأفرنجية التي تخلت عن وطنها وعن قومها وعن دينها!

وها هي الظروف القاسية، والأقدار اللاعبة بالمصائر، تجمع في مكان واحد، في أرض إفريقية، على حافة صهريج بالقيروان، بين حفيد الطبيب العربي المسلم، وحفيدة الطبيبة الأفرنجية المسيحية، وقد أصبح الحفيد إفرنجيًا مسيحياً، وأصبحت الحفيدة عربية مسلمة!

لم يعد الطبيب بولس سادو في تلك الليلة إلى قصر الأمير الأغلبي الذي أستضافه. ولم تعد نفيسة التلمسانية في تلك الليلة إلى كوخها في ظاهر القيروان...

وفي صباح اليوم التالي، في صيف تلك السنة، سنة ٢٤٩ هجرية. الموافقة لسنة ٨٦٣ للميلاد، وجدت جثتان طافيتان على سطح الماء الصافي، في مهرج القيروان!..

فهل أقدم الطبيب والطبيبة على الإنتحار عمدًا بإلقاء نفسيهما في اليم؟ وهل أستبد بهما وخز الضمير، وأعتبر كل منهما أن أسرته ملطخة بعار الخيانة، خيانة الوطن، وخيانة العشيرة، وخيانة الدين؟ وأن العقاب

الذي يرضاه الضمير، ويرتاح إليه، هو الموت المتعمد. فوضع الإثنان حدًا لحياتهما، وقطعا بأيديهما ذلك الخيط الذي ربط أبو إبراهيم الأغلب طرفيه مدفوعًا بعطفه على العلم والعلماء؟!

أم أن سنة من النوم قد أخذت الطبيب والطبيبة، بعد أن أمتد بهما المقام، وطال بينهما الحديث، ولعبت بأعصابهما الشجون، فأستلقيا على حافة الصهريج، وسقطا في الماء عن غير تعمد، وغرقا في سكون الليل، بينما كانت القيروان كلها غارقة في نومها؟

أمر أبو إبراهيم الأغلب أن يدفن الطبيب والطبيبة في مكان واحد. ولكنه أوفد الرسل إلى بلاد الغرب، وساعدته الظروف علي كشف الستار عن حقيقة «بولس سادو» أو «بولس السعدي» قبل أن توافيه المنية...

فقد مات أبو إبراهيم في السنة نفسها التي غرق فيها بولس ونفيسة، وأحتفظ في مكتبته في «القصر القديم» بالمخطوطات التي تركها الإثنان، ودونا فيها نتائج دروسهما وأبحاثهما الطبية.

وقد نقل جزء كبير من مكتبة الأغالبة إلى «فاس» بالمغرب الأقصى ثم إلى الأندلس في القرون التالية، وترك بعض مخطوطاتها في إسبانيا، بعد خروج العرب من الفردوس المفقود، وقد يعثر الباحثون على فيء منها، لو أمتدت أيديهم إلى مخابئ قصر «إسكوريال» على مقربة من مدريد عاصمة إسبانيا اليوم حيث تكدست خزائن الكتب العربية الأندلسية، في أقبية تحت الأرض، لا تزال فيها إلى أيامنا هذه!

نخلة مراكش

«نخلة» ذهبت من الشام إلى المغرب، ودفنت بين «النخيل» في مدينة مراكش، بعد أن جلبت السعد للبلاد وأهلها.

بجوار مسجد الكتيبة بمدينة مراكش، وفي ظلال المئذنة البديعة التي تعد آية رائعة من آيات الفن المعماري والهندسي في الإسلام، يجثم ضريح خال من مظاهر البذخ والعظمة، ولكنه يضم رفات بطل ملأ أسمه الدنيا وطبق في عهده الآفاق: يوسف بن تاشفين.

وخارج أسوار المدينة، بين أشجار النخيل المتراصة كأنها كتائب المجاهدين تتأهب لزحف رهيب وفتح قريب، قبر آخر، ضاعت معالمه، ويصعب على الباحث العثور عليه: ذلك القبر يضم رفات إمرأة كان لها في حروب أبن تاشفين نصيب، وفي إنشاء مدينة مراكش فضل كبير: «نخلة اللمعية الشامية» التي عرفها رفاق الفاتح العظيم من أبطال «المرابطين» بإسم «نخلة مراكش» والتي تتغنى الأفنان والأغصان بذكرها العطر بلا شك، كلما داعب النسيم سعف النخيل أو عصفت بها الرياح في سهل «المدينة الحمراء».

مشي أبو بكر بن عمر اللمتوني، أمر الملثمين، وعميد الأشياخ المرابطين، من الجنوب حيث كانت قبائل البربر تضرب مضاربها، إلى الشمال حيث المدن والقرى والمزارع والحقول. وحالفه النصر من مرحلة إلى مرحلة فبسط سلطانه على البلدان الممتدة في محاذاة جبال الأطلس وبين شعابها ووديانها، ولكن ظروفًا قاهرة أرغمت القائد الموفق على العودة أدراجه من حيث أتى، فألقي بمقاليد الأمور إلى أبن عمه يوسف أبن تاشفين ونادى به قائدًا للبربر وعميدًا لأشياخ المرابطين ولقبه بأمير المسلمين، فكان يوسف عند حسن الظن به، وجديرًا بتأدية الرسالة التي وضعها أبن عمه أبو بكر أمانة في عنقه.

قرر يوسف إذن مواصلة الزحف شمالاً، وفي آن واحد إنشاء سلسلة من القلاع والحصون والمدن، وترك حاميات فيها، وإقامة حكم المرابطين على أسس قوية ودعائم ثابتة، وإختيار مكان صالح لبناء عاصمة للدولة الجديدة التي لم يشك القائد لحظة واحدة في أنها ستبسط سلطانها على المغرب كله.

وكان يوسف بن تاشفين يعتمد في أعماله الحربية على رهط من رفاقه في الجهاد، وثق بهم ووثقوا به، وجعل منهم مستشاريه في كل كبيرة وصغيرة، بل جعل منهم ما سمي فيما بعد، بلغة الجيوش، هيئة «أركان الحرب» التي يعتمد عليها كل قائد.

أما الشخص الذي كان يوسف يستشيره أكثر من غيره، ويعمل برأيه أكثر من غيره، فإمرأة رافقت المرابطين في غزواتهم الموفقة منذ اللحظة

الأولى، ونظروا إليها جميعًا نظرة زعيمهم، فأعتقدوا فيها القدرة على إستطلاع الغيب والقراءة في صفحة القضاء ومعرفة ما يخبئ الغد من مراقبة الطيور في روحاتها وهجراتها...

هذا ما كان يعتقده يوسف بن تاشفين ورفاقه، وزادوا عليه إعتقادهم في قرارة أنفسهم أن «نخلة اللمعية السامية» تجلب لهم الخير وتضمن لقائدهم النصر ما دامت ملازمة لهم في أسفارهم وحروبهم وفتوحاتهم. فهي في نظر يوسف وفي الواقع، عرافة لا تخطئ، ونميمة لا يفارقها السعد.

ونخلة بنت رجل شامي يدعى «فهد اللمعي» جاء إلى المغرب مع الحجاج المرابطين، وأستشهد في حروبهم، وماتت زوجته تاركة وحيدتها «نخلة» وديعة بين يدي أبي بكر بن عمر اللمتوني، فأنقذها يوسف بن تاشفين ذات مرة من مخالب ذئب هاجم المضارب في خلال رحلة من رحلات القبائل البربرية عند تخوم شنقيط. وأقسمت الفتاة أن تعيش في كنف منقذها وتقف نفسها على خدمته، وأن ترافقه في حروبه وتشاركه القتال وتخوض غمار المعارك على ظهور الإبل والمهاري، ككل محارب من أبناء القبائل...

هذا ما عرفه عنها أولئك الرجال الأشداء الذين قادهم أبو بكر أبن عمر أولاً، ثم يوسف بن تاشفين من بعده، إلى فتح الأقطار والأمصار، وإخضاع الحضر والبدو من سكان المغرب...

عرفوا أسمها. وعرفوا وأيقنوا أنها عرافة تنبئهم بما يخبئه لهم الغد. وجلابة للسعد لكل من يلبس ثوبها أو يرافقها في حرب...

وأحبتها «زينب» زوجة يوسف بن تاشفين كما أحبها زوجها، بل أرادت الزوجة أن يتخذ زوجها القائد المنتصر تلك الشامية الفتية الحسناء خليلة له وزوجة تشاركها قلبه. ولكن نخلة نفسها رفضت أن يسبغ عليها منقذها وسيدها ذلك الذي كانت تعده شرفًا لها. فقد قالت لزينب:

– أيتها السيدة المصونة، أن بقائي عذراء شرط لازم للإحتفاظ بقدرتي على إستطلاع الغيب من ناحية، كما يعتقد الناس، وعلى جلب السعد لمن يلازمني، كما يعتقد زوجك على الخصوص. فنخلة اللمعية لن تتخذ لنفسها بعلا من الرجال. وفي اليوم الذي يحدث فيه هذا، تفقد نخلة تلك المزايا التي تتمتع بها، وتلك الصفات التي تجعلكم جميعًا تحبونها وتحترمونها وتحافظون على حياتها...

ويوم ألقي أبو بكر بن عمر بمقاليد الجيش الزاحف إلى أبن عمه يوسف، قالت نخلة للقائد الجديد:

– إن غدك يا يوسف لمفعم بالعظائم والكبائر!.. نحن الآن في مكان كان الأقدمون قد أتخذوه مقراً لآلهتهم، وهيكلاً لأصنامهم، ومسرحًا لأعبادهم وأفراحهم، وإننا نرى حولنا آثار تلك العصور الخوالي، التي كانت فيها شعوب أنقرضت الآن تحكم هنا وتسود. وفي هذا المكان، أرى أن تنشئ أول مدينة تحمل طابعك وطابع القوم الذين تتولى قيادته إلى النصر.

وسأل يوسف:

– أرجو يا نخلة أن تتصفحي ما تنصحني به الكواكب والنجوم،

وأن تنبئيني بالإسم الذي يجمل بي أن أطلقه على المدينة الجديدة، وهل أجعلها عاصمة ملكي أم مرحلة من مراحل الزحف إلى الشمال..؟

وفي اليوم التالي، جاءه الرد:

– يوسف، أطلق على مدينتك أسم «تمراكش» وشيد بيوتها وأسوارها من الحجارة الحمراء، وأجعل في وسطها مسجدًا جامعًا تشرف مئذنته على السهول المحيطة بالمدينة العتيدة التي يجدر بك أن تعدها من الآن عاصمة دولتك.

– وهل أترك السهول جرداء كما هي الآن؟

– كلا... بل سوف نجيء إليها بآلاف من فسائل النخيل، من الغابات الجنوبية التي نشأت وترعرعت فيها عشائر البربر.

ونفذ يوسف نصيحة العرافة. ولكنه أشترط عليها أن تظل ملازمة للعمال والصناع والبنائين الذين عهد إليهم الفاتح في إنشاء عاصمته الجديدة. فقد قال لها:

– يجب أن يظل السعد مخيمًا على المكان حتى تصبح المدينة أمراً واقعًا. فعليك يا نخلة أن لا تتنقلي من هنا، وأن تضمني ببقائك في تمراكش نجاح الأعمال وسيرها بسرعة...

وهذا ما حدث!

فقد أشرفت نخلة على وضع الرسوم والتصميمات وتخطيط الطرقات والأزقة، وحفر القنوات وجرى المياه من الينابيع والجداول إلى داخل المدينة...

وأشرفت بصورة خاصة على نقل فسائل النخيل من أقصى الجنوب، وغرسها حول المدينة لكي تنمو في الوقت الذي تشيد فيه المساكن والدور الرسمية والمساجد وثكنات الجيش...

كل ذلك تم في سنة واحدة: ٤٥٥ هجرية، الموافقة لسنة ١٠٦٢ للميلاد.

نبتت المدينة في الصحراء بقدرة قادر، وأحاطها يوسف بن تاشفين بسور من الحجر الأحمر، وفرش أرضها بالرمال الحمراء، وسماها بلغة البربر «تمراكش» وهو الإسم الذي حرفته الألسنة على كر الأيام فأصبح «مراكش» وظل أسم القطر كله الذي كانت المدينة المرابطية عاصمة له، المغرب الأقصى...

المدينة التي تمتد حولها السهول الخضراء بنخيلها الذي لا حصر له، والذي يرجع الفضل في غرس فسائله الأولى إلى صديقه الفاتح ورفيقته في فتوحاته، نخلة اللمعية الشامية...

المدينة التي قدر لها أن يبلغ عدد سكانها في أوج عظمتها أكثر من نصف مليون ساكن. والتي شبهها الأجانب الذين زاروها بياقوتة ضخمة حمراء، وسط حقل من الزمرد الأخضر، لشدة حمرتها عندما تنصب عليها أشعة الشمس، ولبهاء خضرتها المتماوجة عندما تلعب الرياح بسعف النخيل في الغابات المترامية الأطراف...

ووراء كل عمل أقدم عليه يوسف بن تاشفين، في ميدان الحرب أو

في مضمار الإنشاء والتعمير، رأي للمراة التي كان يعتقد فيها القدرتين، قدرة معرفة الغيب وقدرة جلب السعد...

كانت نخلة اللمعية مع القائد يوم دخل مدينة فاس فاتحًا. وكانت معه يوم قفز من المغرب إلى الأندلس، لنجدة المعتمد بن عباد وهزم الإفرنج في وقعة «الزلاقة» التي ذعر فيها المحاربون الإسبانيون إذ رأوا للمرة الأولى الهجن الخفيفة السريعة تخوض الميادين بجانب الخيول المطهمة.

وكانت نخلة اللمعية مع القائد المظفر في جميع المراحل التي أجتازها يوسف بن تاشفين في إقامة ملكه وإنشاء دولة المرابطين التي أمتد سلطانها من إسبانيا إلى أطراف الصحراء الكبرى...

وكان يوسف بن تاشفين بجانب نخلة اللمعية الشامية، يوم أشتدت عليها وطأة الحمى، فماتت تدعو للمرابطين بدوام العز والنصر...

كان ذلك في سنة خمسمائة للهجرة، الموافقة لسنة ١١٠٦ للميلاد، بمدينة مراكش التي أشرفت المرأة على إنشائها.

ونفذ يوسف بن تاشفين رغبة العرافة الأخيرة فأمر بأن تدفن في ظلال النخيل، على مقربة من الأسوار الحمراء.

وفي السنة نفسها، لحق يوسف بن تاشفين بالمرأة التي كان يعتقد إعتقادًا راسخًا أن بقاءه مرتبط ببقائها، وأن موته لابد أن يتبع موتها...

ودفن أبو يعقوب يوسف بن تاشفين، أمير المسلمين، وأمير

المـؤمنين، وشـيخ المـرابطين، فـي الضـريح الـذي أعـده لنفسـه، بجـوار المسجد الأكبر الذي بناه في عاصمة ملكه، وعرف بإسم الكتبية.

قرون مضت على وفاة الفاتح العظيم، وضريحه باق في مكانه. وأما ضريح العرافة التي أكرمها وكانت له وفية، فقد طفت عليه الرمال وطوته جذوع النخيل بين أذرعتها العديدة فأختفت معالمه...

ولكـن أشـجار النخيـل باقيـة، تتكـاثر يومـاً بعـد يـوم، وتتمـتم عنـد الغروب أسم «النخلة» التي جاءت من المشرق إلى المغرب، من الشام إلى تمراكش لتستطلع الغيب وتجلب السعد!

غادة أكدير

كرهت خطيبها الجبان، فآثرت عليه عدوه الشجاع، وأنتقلت من بيئة إلى بيئة!

لم يذق الحاكم في ذلك اليوم طعم الراحة، ولم يغمض له في الليل جفن: فالأخبار التي حملها إليه الرسل الذين أوفدهم للإستطلاع، زادت مخاوفه، وأكدت له صحة الإشاعات التي توالت على الحصن الذي يقيم فيه، والقائلة بأن قوة من المغاربة في طريقها إليه...

كان ذلك المكان من ساحل المغرب الأقصى، على بحر الظلمات، مقصد الصيادين لوفرة السمك في مياهه، وصلاحية شاطئه لرسو السفن، وتفريغها، أو لإحتمائها من الأمواج الهائجة، يوم تهب العواصف وتشتد الرياح.

وكان جميع الصيادين الذين يقصدون ذلك المكان المحظوظ، أو معظمهم، من البرتغاليين. فالأسطول البرتغالي كان مسيطراً على البحار تجاه السواحل الأفريقية، وكان له في بعض أنحاء المغرب ثغور يأوى إليها، وقلاع تحمي الثغور، وحاميات تقيم في القلاع!

طلب الصيادون البرتغاليون من ملكهم أن يضيف إلى تلك الحاميات حامية. وإلى تلك القلاع قلعة، وإلى تلك الثغور ثغرا. فأجابهم إلى طلبهم، وأنشأ

لهم حصناً في المكان الذي أختاروا، أطلق عليه أسم «سانتا كروز» أي «الصليب المقدس» وجعل له حامية بقيادة حاكم من قواد جيشه، ودعا الصيادين إلى إقامة أكواخ وبناء منازل على شاطئ البحر، في حماية الحصن المنيع.

ومرت أعوام، والحصن والبلدة في أمان...

ولكنه أمان لم يدم طويلاً!

في داخل المغرب، كان «السعديون» قد بدءوا ينشئون دولتهم، بعد أن أدرك الإنحلال دولة «المرينيين» وكان الشريف أبو عبد الله محمد الشيخ، الملقب بالمهدي، قد أقتطع لنفسه إمارة في «تارودنت» ناحية الجنوب، وعمل بجد ونشاط لتوسيع رقعتها. وتأمين أطرافها.

تطلع إلى الساحل فإذا به يجد الثغور البرتغالية وقلاعها وحامياتها، تمتد في حلقات تكاد تكون متواصلة، من شمال المغرب في طنجة، إلى جنوبه في سانتا كروز. فقرر التخلص من أولئك الأغراب، في الأماكن التي يحتلونها بجوار إمارته... وجعل سانتا كروز هدفه الأول...

وكان ذلك في مسنة **١٥٣٦** للميلاد، الموافقة لسنة **٩٤٢** للهجرة.

كان يقود الحامية، ويحكم البلدة، في ذلك الوقت، رجل ذو ماض مجيد ومواقف في الحروب مشرفة: النبيل جوتيريز دي مونروى. وكانت تقيم معه في الحصن أبنته الوحيدة «فرانشيسكا» التي خطبت لشاب من أقارب أسرتها، ضابط في الجيش، أختاره والدها ليحل محله في قيادة الموقع إذا حدث ما يضطره إلى التخلي عنه.

وأقترب الموعد المحدد للزواج، وجعل سكان البلدة وجنود الحامية يمنون أنفسهم بإقامة مهرجان وقضاء بضعة أيام في فرح ومرح، في تلك المناسبة السعيدة.

وقرروا أن يقدموا للعروس معطفًا مصنوعًا بأيدي نسائهم، هدية يوم زواجها.

وحدث ما لم يكن في الحسبان!

تلقى الحاكم تلك الأخبار المقلقة عن قرب زحف المغاربة على موقع سانتا كروز، فأنذر السكان بالخطر القادم. وأعد العدة للصمود، وأوفدوا بيدرو خطيب أبنته رسولًا إلى الملك لطلب النجدة...

وتولت الفتاة نفسها تدريب النساء على الإشتراك مع الجنود والسكان في أعمال الدفاع. وما مرت أيام حتى كان كل شيء في الموقع الحصين قد تغير، وحتى كانت طلائع القوة المغربية الزاحفة تد بدت من بعيد...

وبدأ الصراع بين الطرفين...

كان القتال مريراً...

الشريف محمد المهدي قائد محنك، وقد رسم لنفسه خطة صمم على تطبيقها بحذافيرها، للسيطرة على الساحل الجنوبي من البلاد المغربية، ثم الإنصراف إلى بسط سلطانه على قلب البلاد وشمالها. ولا بد له من تنظيف الشاطئ من القواعد البرتغالية، وفي مقدمتها سانتا كروز.

وجوتيريز دي مونروي خصم عنيد، أقسم للملك بأن يحتفظ له

بالحصن المنيع، الواقع في طرف السلسلة الطويلة من الحصون المشيدة على الساحل. وهو عازم على البر بقسمه.

تجلت البطولة الحقة من الجانبين...

كان الهجوم عنيفاً، وكان الدفاع رائعاً!

وبدأ جوتيريز يشعر بأن الكفة راجحة لمصلحة خصمه. وأن الصمود لن يطول إذ لم يعد «بيدرو» بنجدة من الرجال والعتاد، قبل فوات الوقت...

وكانت فرانشيسكا، أثناء الحصار، وكلما أشتدت وطأته، تبدل جهدها في إستنهاض همم الرجال وتغدية الأمل في نفوس النساء، مرددة بلا إنقطاع ومؤمنة بما تقول: «سوف يصل بيدرو قريباً، عائدًا من الشمال، ومعه النجدة التي نرجوها!..»

ولكن الأيام والليالي تمر متتابعة، وبيدرو لا يعود، والحصار حول الحصن ساعة بعد ساعة...

الإصابات بين رجال الحامية كثيرة.. المؤن تنقص يومًا بعد يوم.. النجدات لا تصل إلى البرتغاليين بل تصل إلى المغاربة.. الهجوم يشتد والدفاع يضعف...

وحل الموعد الذي حدده الشريف السعدي للوثبة الكبرى، لأخذ الحصن عنوة بعد أن فتح الحصار ثغرة في الأسوار، وزعزع الثقة في نفوس المدافعين...

عند الفجر، تحرك المغاربة إلى الأمام وفي طليعتهم الشريف قائدهم، وحوله حاملو الأعلام وضاربو الطبول، وتصاعدت في الجو صيحات الحرب من الجانبين، ودخل الصراع في مرحلته الفاصلة!

أصيب جوتيريز دي مونروي بجرح في كتفه، وهرولت أبنته فرانشيسكا لإسعافه وعلى وجهها في آن واحد أمارات القلق وعلامات الإرتياح، وقالت بصوت أرادته أن يكون ثابت النبرات:

– أبي!.. أبي!.. أرى قلوع سفينتين في الأفق القريب... بيدرو... بيدرو عائد إلينا بالنجدة المرجوة... أبشر... أبشر يا أبي فإن الحصن لن يسقط في قبضة الأعداء!

واصل جوتيريز أداء مهمته بالرغم من الجرح الذي أصابه والذي لم يكن على جانب من الخطر ولكن الجهود التي بذلها، والشجاعة التي تجلت في رجاله، وقوة الإرادة التي تحلت بها فرانشيسكا وصويحباتها من النساء، كلها ذهبت سدى ولم تنقذ الحصن من مصيره المحتوم!

تمكن المغاربة من إقتحام الأسوار، فتسلقوا بعضها، وهدموا بعضها، ووقعت في الداخل مديحة رهيبة...

وتطلعت فرانشيسكا إلى مياه البحر، حيث كانت السفينتان تتهاديان على مقربة من الشاطيء فإذا بها تلاحظ أمراً لم تكن تتوقعه!

رأى بيدرو، بعد أن أصبح في مواجهة الحصن، أن المغاربة متفوقون على البرتغاليين، وأن الدفاع قد أنهار، وأن جماعة من المهاجمين قد أستولوا على المراكب الصغيرة الراسية على شاطئ البلدة وأنطلقوا بها في أتجاه السفينتين.

تردد الشاب...

وأدرك أن نزوله مع نجدته إلى البر قد أصبح متعذرًا، أو محفوفًا

بالخطر فلم يقدم على مغامرة قد يكون الهلاك نصيبه منها!

ولما أرتفعت على الأبراج أعلام الشريف السعدي، أصدر بيدرو أمره إلى السفينتين بالعودة إلى الوراء...

فطنت فرانشيسكا إلى هذا الذي حدث، وصاحت بلا وعي، وبصوت تخنقه عبرات الغيظ: «جبان!.. جبان!..»

خطيبها يهرب من المعركة قبل أن يخوضها... وأبوها جريح يواصل قتالًا لا أمل فيه... وجنود يسقطون حولها قتلى أو جرحى... ونساء دب الرعب في نفوسهن فهربن إلى السراديب يختبئن فيها...

صاحت الفتاة: «أبي!.. أبي!.. ضع حدًا لهذه المجزرة.. فقد وفيت ما عليك، وقاومت ما أستطعت.. وضميرك مرتاح.. لا عار عليك إذا أستسلمت!»

فطلب جوتيريز دي مونروي الكف عن القتال... وعرض على الشريف محمد المهدي هدنة يتم بعدها تسليم الموقع بما فيه!

كان النصر حليف المغاربة في ذلك اليوم، فقد قتل معظم المدافعين عن الحصن. ووقع الأحياء في الأسر، وأصبح موقع سانتاكروز غنيمة للمنتصرين...

وقال الحاكم البرتغالي لمحمد المهدي: «أنا وأبنتي بين يديك. فأفعل بنا ما تشاء!».

وأجاب الشريف السعدي: «أنت حر طليق. فقد كنت قد دفاعك عن الأمانة التي كانت في عنقك بطلاً شجاعًا... والبقية الباقية من رجالك ومن سكان البلدة أحرار أيضًا... فأذهبوا إلى حيث تريدون... أما

أبنتك، التي شاهدت بطولتها في القتال كما شاهدت بطولتك، فهي حرة بأن تلحق بك... أو بأن تبقي معنا..»

دهش النجم البرتغالي مما قاله خصمه المغربي. وردد قائلاً: «أبنتي... تبقى معكم ؟..»

وأجاب محمد المهدي: «نعم... تبقي إذا أرادت... زوجة لي!».

وفوجئ جوتيريز بإبنته تجيب بنفسها على ما عرضه الشريف السعدي: «أبي!..إذهبوا أنتم..أما أنا، فباقية هنا..راضية بأن أربط مصيري بهذا السيد المغربي الذي إنتصر علينا..سعيدة بأن أبتعد عن الرجل البرتغالي الذي جبن سن خوض المعركة، وفر من الميدان، وخان الوطن والأهل والحب!».

كرهت الفتاة فجأة الشاب اللي كانت من قبل قد وقفت له حياتها ووهبته قلبها. فرضيت بما عرضه الشريف على أبيها وإعتزمت منذ تلك اللحظة أن تستبدل وطنًا بوطن، وقومًا بقوم، وأهلًا بأهل!

رحل البرتغاليون عن سانتا كروز عائدين إلى بلادهم..

وكان الوداع مؤثرًا بين الفتاة الباقية ووالدها الحزين، ومواطنيها المغلوب على أمرهم...

وأرادت النساء أن تحفظ فرانشيسكا لهن مودة لذكرها بماضيها، فقدمن إليها المعطف الذي أعددنه لها هدية ليوم عرسها..

طلبن منها أن ترتديه يوم يتم زواجها، بعد أن لعبت الأقدار بمصيرها، ومصير خطيبها البرتغالي.

فوعدت بأن تفعل ذلك. وبأن تذكر صانعات المعطف بالخير في حياتها الجديدة...

وإتحذ الشريف السعدي محمد المهدي الفتاة فرانشيسكا إبنة جوتيريزي دي مونروي زوجة له...

وأمر بإعادة بناء الحصن وتسليم البلدة إلى الصيادين المغاربة الراغبين في الإقامة فيها..

وجعل للحصن حامية تصونه وترعاه...

وأطلق على البلدة وعلى الحصن إسمًا جديدًا، فعرفت سانتا كروز منذ ذلك الوقت بإسم «أكدير أرهير» ومعنى هذا الإسم بلغة البربر سكان الجبال المجاورة «قلعة التل».

وفي سنة ١٥٤٣ للميلاد، الموافقة لسنة ٩٤٩ للهجرة، تولى الشريف السعدي محمد الشيخ المهدي الملك في المغرب، فكان الثاني من السلاطين السعديين..

أما البلدة التي غير إسمها، فقد درج الناس على تسميتها فيما بعد «أغادير» وهي التي دمرها زلزال عنيف في التاسع والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٦٠-الموافقة لسنة ١٣٧٩ للهجرة، فإعتزم الملك محمد الخامس العلوي إعادة بنائها...

معركة الملوك الثلاثة

أصغت المرأة لصوت الحب، ومات حبها وحقدها في معركة قتل فيها ثلاثة ملوك!

ظل أبو عبد الله لحظات مفكرًا صامتًا، ثم رفع رأسه، ومد يده مداعب جدائل المرآة الجاثية أمامه ومر بأنامله على الجبين الوضاح، والحد الأملس، فرمقته بياتريس بنظرات تنم في آن واحد من حب وحقد. وعن رجاء في أن يجيبها إلى ما طلبته منه...

إنها تحبه... إنها تحقد على أعدائه...

إنها تريد إنقاذه من المأزق الذي أوقع نفسه فيه، لأن في إنقاذه فوزًا لحبها، وإرضاء لحقدها.

وقال أبو عبد الله:

– سأفكر في هذا يا صديقتي... وسأوافيك بالرد غدًا بإذن الله.

ولكنها أمسكت بكفيه وهزتهما بشيء من العنف، وصاحت قائلة:

– كل يوم يمر على هذه الحالة يزيدها تعقيدًا ويفقدك فرصة قد لا تعوض... دعني أذهب يا محمد! دعني أفعل ما عرضته عليك... فلا سبيل إلى الخلاص إلا بهذا...

فسكت أبو عبد الله لحظة أخرى، ثم تنهد قائلًا:

– إذهبي، على بركة الله!

وخرجت بياتريس مهرولة من الحجرة التي حبست نفسها فيها ساعة كاملة لإقناع صديقها بالموافقة على الخطة التي رسمتها له، وأسرعت إلى مراح الخيل فإمتطت فرسًا أصيلة، وإنطلقت بها تقطع الفيافي والجبال.

إلى أين ذهبت؟ ومن هي؟ ومن هو؟ وماذا تريد الفارسة العجيبة أن تفعل!

هو مولاي أبو عبد الله محمد المتوكل، السلطان الذي إعتلى عرش المغرب بمدينة فاس مئة **١٥٧٣** ميلادية، الموافقة لسنة **٩٨١** للهجرة خلفًا لأبيه، ولكنه فاز بالعرش دون أن يفوز ببيعة العلماء، ورضى أسرته، ومحبة شعبه.

وما أن مرت شهور على إعتلائه العرش، حتى هب عمه أبو مروان عبد الملك لإقصائه عنه، فتم للعم طرد إبن أخيه من العاصمة، ونادى بنفسه سلطانًا ولقب بالمعتصم. وإضطر أبو عبد الله محمد المتوكل إلى الهرب فلجأ إلى مدينة مراكش.

أما هي، المرأة، فأسيرة برتغالية عاشت في كنف الأسرة السعدية المالكة، وتوثقت عرى الصداقة والمحبة بينها وبين محمد، فرفضت الحرية يوم أراد السلطان، وأراد ابوه من قبله، إطلاقها من الأسر، وآثرت البقاء في فارس، على العودة الي قومها ووطنها البرتغال.

وأما ما عرضته على صديقها في ذلك اليوم، بعد أن قلب له الدهر ظهر المجن، وأحاط به الخطر الداهم، فأوشك أن يفقد الحياة بعد أن فقد العرش، فهو أن يلجأ إلى البرتغال، ويستعين بالملك سباستيانو الجالس على عرشه في لشبونة، ويحالفه على عمه عبد الملك، ويتعاقد معه على العمل معًا، هو في سبيل إسترجاع الملك، والملك البرتغالي في سبيل الإحتفال بممتلكائه على سواحل المغرب، وتوسيع رقعتها بعد النصر.

تردد أبو عبد الله في باديء الأمر، ولكن حب السلطة، والرغبة في الثأر من عمه، والخوف من فقدان الثروة والجاه، كل ذلك دفعه إلى قبول ما عرضته عليه بياتريس البرتغالية، فأذن لها بأن تسبقه، على أن يلحق بها بدون إبطاء.

ولحق بها، وإلتقى الإثنان مع فريق من الأعوان عند الساحل بالقرب من طنجة، وركبوا البحر ميممين شطر البرتغال.

وهناك تعاقد السلطان الهارب من المغرب، مع الملك الطامع في إحتلال المغرب، على العمل معًا في سبيل الهدفين: السلطان المغربي لإسترجاع عرشه بمساعدة الملك البرتغالي، والملك البرتغالي لضمان سيادة البرتغال على السواحل المغربية بما فيها من ثغور.

وعلم عبد الملك، في عاصمته فاس، بما تم بين إبن اخيه الهارب منه، وسباستيان الذي أجاره، فأوفد من يعرض على الملك البرتغالي شروطًا مغرية، لحمله على التخلي عن حليفه، وعدم المجيء إلى المغرب على رأس حملة عسكرية للغزو والفتح.

غير أن ملك البرتغال، وهو شاب في مطلع العقد الثالث من العمره داخله الزهو والغرور، لما رأى سلطانًا يلجأ إليه، وآخر يتملقه بالوعود، فطرد رسل عبد الملك، وأصدر في الحال أوامره بتعبئة الجيش والأسطول، وإعداد العدة للحرب والقتال!

وفرحت بياتريس بما لقته مساعيها من نجاح، فقد وجدت عروشها آذانًا صاغية لدى الملك الشاب، لأن سباستيان كان يفكر، منذ أن إعتلى العرش، في الإقدام على مغامرة جريئة للإستيلاء على الثغور المغربية. ولما لجأ إليه أبو عبد الله، بتحريض من المرأة التي أحبته، رأى في ذلك إشارة من الأقدار بأن يقدم في الحال على ما إعتزم القيام به، لأن معونة فريق من المغاربة على الفريق الآخر نعمة سيكون لها في سير القتال وبلوغ النتائج وزنها وقدرها.

وأقلعت السفن البرتغالية بالحملة التي أعدها الملك الطامع، والتي ضمت، بخلاف جنوده، مرتزقة من الألمانيين والإيطاليين والأسبانيين، فضلًا عن أنصار أبي عبد الله الذين إلتحقوا بالحملة على إثر نزولها إلى البر المغربي، بين طنجة والعرائش.

وإستولى الغزاة على هاتين المدينتين بعد قتال شديد.

وظن أبو عبد الله أن الحظ قد هجر صفوف خصومه وإستقر في صفه هو، وظن سباستيانو أيضًا أن فتح المغرب بأسره أصبح ميسورًا وفي متناول يده، ما دام النصر قد حالفه في المرحلة الأولى من مراحل الحرب العدوانية التي أقدم عليها.

ولكن سباستيانو كان مخطئًا في ظنه، وكان أبو عبد الله محمد المتوكل أيضًا مغرورًا بنفسه، وكانت فرحة بياتريس البرتغالية سابقة لأوانها.

فقد أعد مولاي أبو مروان عبد الملك المعتصم، لمواجهة الخطر الزاحف، خطة مدروسة مرسومة بدقة وضعها بالإشتراك مع إثنين من نوابغ القواد في ذلك العصر: أولهما أخوه أبو العباس أحمد، الذي أيده وعاونه ومشى معه إلى اليادي منذ اللحظة الأولى التي هب فيها لأخذ العرش من إبن أخيه محمد، والتاني قائد الفرسان «رضوان» وهو أوربي إلتحق بكلمة السعديين بالمغرب وربط مصيه بمصير عبد الملك المعتصم.

دارت رحى القتال بين الفريقين، وتتابعت الأيام بن كر وفر، وتنقل النصر من صف إلى صف، ومن جيش إلى جيش، ولكن الغزاة القادمين من الخارج، وحلفاءهم من المغاربة أنصار السلطان الطريد محمد المتوكل، لم يتمكنوا من التوغل في داخل البلاد، ولم يستطيعوا الصعود إلا في المعاقل التي أنشأوها وحصنوها وإعتصموا فيها على طول الساحل.

وأخيرًا، قرر عبد الملك أن يضرب ضربة قوية أراد أن تكون القاضية، فعهد إلى أخيه أبي العباس أحمد بأن يجمع له ما إستطاع من رجال الحرب ومن معدات القتال، وقصد على رأس جيش ضم كل قواته، إلى حيث كان سباستيانو وحليفه محمد وأنصارهما يرابطون في السهل الممتد حول مدينة «القصر الكبير».

يقول المؤرخون الإفرنج أن عدد المغاربة كان خمسين ألفًا. ويقول المؤرخون العرب أن عدد المغاربة كان فعلًا خمسين ألف مقاتل، بينهم أربعة

آلاف من الأوربيين الذين إلتحقوا بخدمة السلطان، وألفين من جنود المدفعية، ولكن البرتغاليين وحلفاءهم كانوا مائة ألف لا ثلاثين ألفًا فقط، وكان بينهم بضعة آلاف من الفرسان، ومعهم ستة وثلاثون من المدافع الضخمة!

وصل عبد الملك المعتصم إلى سهل القصر الكبير، فإذا به يجد حيث الأعداء مصطفًا فيه إستعدادًا للقتال، على ضفاف نهرين يخترقان السهل من الغرب إلى الشرق، وقد أحاط نفسه بسور من مركبات النقل وغصون الأشجار.

وفوجئ المعتصم بمرض أقعده عن الحراك، ومنعه من أن يتولى بنفسه قيادة المعركة، ولكنه أمر بأن تصنع له محفة في داخلها فراش ووسائد. فكان له ما أراد، وإضطجع السلطان المريض في ذلك السرير المحمول على الأكتاف، وأشرف منه على تطور الحالة لحظة بعد لحظة.

عهد إلى أخيه أبي العباس أحمد بأن يتولى القيادة مكانه، فنشر أحمد جيشه تجاه العدو، وفاقًا لخطة لم يرسمها من قبل بل إستوحي تفاصيلها من كيفية إنتشار البرتغاليين وحلفائهم في السهل.

وكان المغاربة هم البادئين بالقتال. فقد صبوا نيران مدافعهم على جناحي العدو، ثم أطلقوا فرسانهم لملاقاة فرسانه في الميدان.

كان ذلك في اليوم الرابع من شهر أغسطس سنة ١٥٧٨ ميلادية الموافقة لسنة ٩٨٦ هجرية وأشعة الشمس تسكب حرارتها من الجو فتمتزج بحرارة النيران المنبعثة من فوهات المدافع والبنادق والغدارات.

معركة رهيبة، جرت فيها الدماء غزيرة من الجانبين، وصبغت الأرض وحولت مياه النهرين إلى أوحال قانية.

تضعضعت صفوف الفرسان البرتغاليين فإنطلقت خيولهم ترمح في السهل وعلى السفح على خير هدى، وإنطلقت في أثرها خيول المغاربة في مطاردة إرتوت فيها السيوف والرماح من الخوض في الصدور والنحور.

وجاء دور المشاة بعد دور الفرسان!

كان السلطان عبد الملك في محفته، يفتح عينيه لحظة، ثم يغمضهما منهوك القوى. ولكن أمارات الغبطة والإرتياح كانت مرسومة على وجهه بالرغم من الشحوب الذي علاه.

وإقترب رضوان من المحفة لتحية السلطان بالنيابة عن أخيه أحمد، المنهمك في إصدار أوامره إلى الكتائب الزاحفة لتطويق العدو.

وإذا بالقائد يتراجع، ويسدل ستائر المحفة، وينادي أربعة من حراسه، ويأمرهم بأن يسهروا على راحة السلطان ولا يسمحوا لأحد بأن يرفع الستائر عن المحفة.

كان السلطان عبد الملك في الواقع قد أسلم الروح!

مات والمعركة محتدمة، وأراد رضوان أن يخفي الخبر عن الجيش فصاح بأعلى صوته، وأمر مساعديه بأن يطلقوا الصيحة مثله: «إن مولاي عبد الملك المعتصم بأمر الجيش بالزحف، وإلقاء العدو في مياه النهرين!».

وهجم الجيش المغربي. وضرب ضربة القاضية بقيادة أبي العباس أحمد، ومعاونه رضوان.

وتشتت الإعدام فقتل معظمهم، وفي القليلون الباقون على قيد الحياة، وهم لا يلوون على شيء.

كان النصر تامًا كاملًا شاملًا!

ولكن الموت حصد في تلك المعركة رءوس الذين أعدوا المجزرة!

مات أبو مروان عبد الملك المعتصم في محفته، قبل أن ينتهي القتال!

وغرق أبو عبد الله محمد المتوكل، وهو يجتاز النهر سباحة طلبًا للنجاة من الأسر أو من الموت في الميدان!

وكان هذا أيضًا مصير حليفه الملك سباستيانو البرتغالي، الذي جرفه التيار فغرق مثل السلطان الطريد.

وكانت بياتريس البرتغالية قد إشتركت في القتال بجانب صديقها المغربي وملك بلادها البرتغالي، فحاولت أن تنقذ الحليفين من الغرق، ولكنها غرقت مثلهما.

ولما غابت الشمس وراء الأفق، وبدأ الليل يسدل ستره على الميدان الرهيب، كان كل شيء قد إنتهى.

الجيش البرتغالي لم يبق له أثر!

وحلفاؤه المغاربة أنصار المتوكل ألقوا سلاحهم وطلبوا الأمان!

وجيش المغرب أصبح في وسعه أن يسترد في بضعة أيام ما كان البرتغاليون قد إستولوا عليه من ثغور المملكة.

وأبو العباس أحمد أصبح جديرًا بأن يلقب بالقائد «المنصور» وبأن ينادي به سلطانًا خلفًا لأخيه.

وهذا ما حدث؟

وعرفت تلك المعركة بإسم «معركة القصر الكبير» لأنها وقعت على مقربة من هذه المدينة. وعرفت أيضًا بإسم «معركة الملوك الثلاثة» لأن الموت إختطف في أثناء المعركة أبطالها الثلاثة: السلطان الطريد محمد المتوكل، والسلطان المريض المعتصم، والملك الغريب سباستيانو.

والرابع هو الذي خرج حيًا من المعمعة، فإعتلى عرش المغرب، وعرف بإسم مولاي أبي العباس أحمد المنصور، ولقب أيضًا بالذهبي، وحكم المغرب خمسًا وعشرين سنة، وكان عهده مفعمًا بالخير والرخاء والمجد.

بعد إنتهاء المعركة، أمر القائد المنصور أبو العباس أحمد بأن تنقل جثة أخيه عبد الملك لتدفن في مشهد لائق بمقامه. وأن تنقل جثة إبن عمه محمد التوكل وتسلم لأنصاره كي يواروها الضريح حيث يريدون. وأن تسلم جثة الملك سباستيانو إلى ذويه ورعاياه، ليحملوها إلى حيث يشاءون.

أما جثة بياتريس، فقد وقف أمامها القائد مندهشًا، وتسائل من أين

جاءت هذه المرأة، ومن الذي جاء بها، وما حملها على خوف غمار المعركة بين صفوف الرجال.

وما وقع عليها نظر رضوان، قائد الفرسان الأوربي الذي إعتنق الإسلام ودخل في خدمة سلاطين العرب، حتى إمتقع وجهه، وأغرورقت عيناه بالدموع.

خطا خطوتين نحو الجثة الممددة على الأرض، ثم ركع أمامه ركبتيه...

وإقترب منه أبو العباس، وربت على كتفه، ونظر الرجلان منهما إلى الآخر، فقرأ رضوان في عيني رئيسه علامة إستفهام. قائلًا:

– هذه بياتريسس... زوجتي!..

..هجرتها منذ أن هجرت بلادي... وكنت أعرف أنها أسيرة في أيدي المغاربة، وأنها ربطت مصيرها بمصير المتوكل... والآن لماذا لجأ الرجل إلى الملك سباستيانو، ومن الذي حرض الأثنين غزو المغرب... لقد فعلت بياتريس ذلك لسببين: أرادت أن تنقذ ال لأنها أحبته، وأرادت أن تنتقم مني لأني هجرتها!...

ولم يكن رضوان مخطئًا: فقد أصغت بياتريس لصوت ال وأصغت لصوت الحقد... ومات حبها وحقدها معها في معركة الثلاثة، بالقرب من القصر الكبير!

القميص الأشهب

قصة اللون الذي إبتكرته الطبيعة، وقلده أرباب الصناعة العرب، وحمل إسم أميرة أفرنجية!

كان الحديث مشبعًا بالمحبة والإحترام المتبادلين، بين إيزابيلا الأسبانية ويمامة العربية، أمام تلك النافذة المطلة على حدائق قصر أسكوريال، مقر ملوك أسبانيا الرابض بين الجبال الوعرة، على مسافة غير بعيدة من العاصمة مدريد.

وكان محور الحديث رغبة إيزابيلا في أن تصحبها يمامة إلى ديار الغربة...

– رأيتك في المنام أيتها العزيزة... كنا معًا على ظهر سفينة تتهادى بنا على صفحة الماء، في طريقها إلى الشمال، إلى بلاد «الأرض المنخفضة» مقر إقامتي من الآن فصاعدًا... فلا تكذبي الحلم الذي ما هو في الواقع غير أمنية يختلج بها صدري... لم أرفض لك رجاء منذ اليوم الذي عرفتك فيه... فلا ترفضي لي اليوم هذا الرجاء...

ترددت يمامة في بادئ الأمر، وتوجست خيفة من الرحيل عن بلد ولدت ونشأت فيه، إلى بلد غريب لا تعرفه، ولا أمل لها فيه ولا أصدقاء.

ولكن ترددها لم يطل. فالعوامل التي تفرض عليها القبول، أقوى بكثير من العامل الذي يوحي إليها بالرفض.

إن إيزابيلا، إبنة الملك فيليب الثاني، قد أصبحت زوجة للأرشيدوق ألبيرت، إبن إمبراطور النمسا مكسيميليان الثالث، الذي حله البابا من قسمة الكهنوتي كأسقف وكاردينال، وأجاز له أن يتزوج ويضطلع بواجبات المنصب الذي عهد به إليه فيليب الأسباني، كحاكم للأرض المنخفضة التابعة لأسبانيا، والتي قدمها الملك هدية عرس لإبنته المحبوبة.

أما تعلق الأميرة إيزابيلا بالمرأة العربية، فسببه أن يمامة عالجتها من مرض خطير بدواء مصنوع من الأعشاب، فشفيت المريضة، وإستولي على قلبها العرفان بالجميل، فأصبحت لا تطيق أن تبتعد عنها «الطبيبة» كما كانت تسمى يمامة، وراحت تغدق عليها النعم والعطايا بلا حساب.

ولهذا، فقد تنفست الصعداء لما أجابتها صديقتها إلى ما طلبته منها، وتعهدت لها بأن ترافقها إلى مقر إقامتها الجديد، بعيدًا عن وطنها الأسباني. وقالت لها أنها واثقة من أن رباها –وهو ولي أمرها– لن يعارض في سفرها، بالرغم من الظروف الخاصة التي تعيش فيها أسرتها العربية في الأرض الأسبانية.

فيمامة إبنة «يوسف الصباغ» من أم أسبانية. وأبوها حفيد «صالح الصباغ» من نصارى دمشق. وهو الذي ورث من أسلافه ثروة كبيرة، وأخذ عنهم الإتقان والدقة في دباغة الجلود وصباغة الأقمشة والأنسجة، وهي صناعة راجت وإزدهرت عمل أيدي أفراد الأسرة الشامية في الأندلس، وعلى الخصوص في مدينة غرناطة حيث إستقر الجد الأكبر لآل «الصباغ» وأول من حمل هذا الإسم المستمد من صناعته.

لما إنتهى الحكم العربي بالأندلس، في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وأوائل القرن العاشر الهجري، ونزحت عن «الفردوس المفقود» جموع الشعب المغلوب على أمره، وإجتازت البحر إلى ديار المغرب، مع الملك أبي عبد الله محمد، عمد الملك فرديناندو الذي آل إليه الحكم في أسبانيا كلها، إلى منع فريق كير من أرباب الصناعات المختلفة، من الرحيل مع الهاربين. وكان آل الصباغ من هذا الفريق. وبقى معهم في غرناطة آل «البيطار» وهم من أسرة نصرانية أصلها من بيت المقدس، وآل «العواد» وهم من مسلمي حلب الذين توارثوا العزف على العود والقانون وإستوطنوا الأندلس قبل الكارثة بقرن أو أكثر.

ومرت الأعوام. وتطورت الأحوال، وكان الحكام الأسبانيون يعاملون العرب بالقسوة حينًا، وباللين حينًا، وكان العرب يخلدون إلى السكينة أو يثورون على الأوضاع الجديدة، حسبما تكون المعاملة التي يلقونها من أولياء الأمر حسنة أو سيئة.

وفي أواخر حكم فيليب الثاني، كان يوسف الصباغ عميد أسرته، التي ظلت تمارس صناعتها. أما أسرة «العواد» فلم يبق منها غير واحد هو عامر العواد، الذي إعتزل الغناء والعزف، وشارك صديقه يوسف في صناعته.

وتزوج الصباغ فتاة أسبانية رزق منها إبنتين، ماتت إحداها في سن الطفولة، وتزوجت الثانية، وهي يمامة الشاب حمدان «البيطار» آخر من كان باقيًا على قيد الحياة من الأسرة التي إشتهرت بتربية الخيول وترويضها. وقد مات حمدان بعد زواجه ببضعة شهور، فإنقرضت أسرته،

وعادت زوجته يمامة إلى بيت أبيها. ولما ماتت أمها الأسبانية، كرست نفسها للعناية بذلك الأب الذي أفرغ فيها حبه وحنانه.

وكانت يمامة قد تعلمت من زوجها طبيب الخيول، إعداد وصفات عربية من مختلف أنواع النباتات، ثبت لحمدان البيطار أنها تشفي في آن واحد من بعض أمراض الحيوان والإنسان على السواء. فصارت المرأة تعالج بها من يلجأ إليها من المرضى، وبدون مقابل، لا فرق عندها بين عربي وأسباني. وذاعت شهرة «الطبيبة» العربية في غرناطة وفي غيرها من المدن الأسبانية، التي كان لأبيها وشريكه فيها فروع للدباغة والصباغة، والتي كانت تتردد عليها معهما من وقت إلى آخر...

وطرقت تلك الشهرة أبواب القصور الملكية.

أصيبت الأميرة إيزابيلا، إبنة الملك فيليب الثاني، بذلك المرض المجهول التي حار الأطباء في تصويره وعلاجه، فهمست في أذن المريضة إحدى الوصيفات قائلة:

– لماذا لا تستدعي مولاتي الطبيبة العربية يمامة وهي اليوم تقيم في المدينة؟

والمريض اليائس يتعلق بحبال الأمل!

دخلت يمامة قصر الملك، ولقيت إيزابيلا الشفاء على يدها. وكان ذلك هو الخيط الأول في نسيج الصداقة التي حاكتها الأيام بين المرأتين:

الأميرة الأسبانية البالغة من العمر ثلاثين عامًا، والطبيبة العربية الثي إتفق إن كانت في هذا العمر أيضًا.

ومضت سنتان ولم تسمح إيزابيلا في خلالهما لصديقتها بأن تغادر العاصمة، بل خصتها بحجرة في القصر الذي تقيم فيه، وكانت تصر على أنه ينزل أبوها أيضًا ضيفًا عليها. إذا ما أراد أن يزور إبنته.

وفي سنة ١٥٩٨ ميلادية الموافقة لسنة ١٠٠٧ هجرية، قرر الملك فيليب الثاني أن يتم ذلك الزواج السياسي بين الإبنة التي يخصها بحبه، والأمير الذي أعده ليكون حاكمًا وملكًا، ألبيرت النمساوي.

وهال إيزابيلا أن تفترق عن صديقتها العربية فألحت عليها بأن ترافقها إلى الأرض المنخفضة، ولم تمانع يمامة في البزول عند رغبة العروس.

الإضطراب يعم البلاد التي ذهب البيت وزوجته إيزابيلا ليتسلما مقاليد الحكم فيها، وهي تشمل هولندا وبلجيكا وجزءًا من أقاليم فرنسا الشمالية الغربية. فإضطرا إلى خوض غمار حرب دامية، واجها فيها الجيش الفرنسي من ناحية، وقوات الأمراء المحليين من ناحية أخرى.

ومات فيليب الثاني في السنة التي تزوجت فيها إبنته الأرشيدوقة، وخلفه إبنه فيليب الثالث، فأقر أخته وزوجها على ولايتهما، ووافاهما بالنجدات المتوالية، فوسعا شقة الحرب، وكان ألبيرت يقود جيوشه بنفسه، فذاق نشوة النصر ومرارة الهزيمة، ولكنه عرف كيف يقطف ثمرة النصر، وكيف يتجنب اليأس بعد الهزيمة.

وظلت إيزابيلا ملازمة له، في السراء والضراء، ترافقه إلى ميادين القتال، وتسهر على راحته، وتعني بصحته. وظلت يمامة أيضًا ملازمة لصديقتها مثل ظلها، وكثيرًا ما كانت الطبيبة العربية تستخدم وصفاتها وعقاقيرها لمعالجة الجرحى والمرضى من أولئك الأغراب الذين أرادت لها الأقدار أن تعيش بينهم.

كانت مدينة «أوستاند» أمنع المعاقل الحصينة التي لابد من الإستيلاء عليها، لكي يستتب الأمر للأرشيدوق وزوجته. فضربه عليها ألبيرت الحصار من الجهات الأربع وأقسم أمام قواد جيشه على ألا يرتد عنها قبل أن تسقط في قبضته...

وأضاف إلى هذا القسم المألوف بين الغزاة والفاتحين، قسمًا آخر جاء فريدًا في نوعه وشكله، فقال لزوجته على مسمع من معاونيه:

– إيزابيلا... إحفظي ثيابي في صندوق محكم الأقفال... فإنني اقسم الآن أمام الله والناس ألا أنزع القميص الذي على جسدي وألبس قميصًا غيره، إلا بعد أن أدخل هذه المدينة منصورًا وأغير ثيابي في قصر الحاكم!..

وإستغرق صار أوستاند ثلاثة أعوام!

وتمسك ألبيرت بقسمه المزدوج..لم يرفع الحصار عن المدينة، بل ضيق عليها يومًا بعد يوم، ولم تستطع زوجته إقناعه بإستبدال قميصه!

ولما إقتحم جيشه أسوار أوستاند، وإستولى على المدينة العاصية، نزع الأرشيدوق قميصه عن جسده، وقال لإيزابيلا:

– إلى الآن بقميص آخر!

بعد ثلاثة أعوام على ألفوه بالقسم وعلى بدء الحصار، تغير لون القميص: كان ناصع البياض، فأصبح ذا لون أشهب، من كثرة ما علق به من غبار وتراب وعرق ودخان. ولم تمزقه إيزابيلا، ولم تغسله من قذارته، بل إحتفظت به كما هو، وقالت لزوجها:

– سيكون هذا القميص أيها الحبيب أعز تذكار عندي لهذا النصر الذي أحرزته في أوستاند. أما هذا اللون الغريب الذي إصطبغ به خلال الحصار، فإنني أتبناه وأريد أن يعرف في مستقبل الأيام بإسم «إيزابيلا»!

وفي مساء ذلك اليوم، في سنة ١٦٠٤ للميلاد، الموافقة لسنة ١٠١٣ للهجرة عادت الأميرة الإسبانية إلى التحدث مع صديقتها العربية عن الماضي وذكريات الأيام السالفة، تحت سماء الأندلس.

وتلاطمت الشجون في صدر يمامة، وإستبد بها الشوق إلى البلد الذي رأت فيه النور، والحنين إلى الأسرة التي طالت غيبتها عنها، فنفرت الدموع من عينيها، بالرغم منها.

وأدركت إيزابيلا ما تعانيه العربية من الأم نفسية، فقالت لها:

– يمامة... لن أفرض عليك البقاء معنا بعد اليوم، فقد جلبت لي الحظ كما كنت أرجو، ولابد أن يخيم السلام على هذا البلد، بعد أن تحققت آمالنا وتم لنا النصر في هذه الحرب..أتريدين العودة إلى الأندلس؟

– نعم: إذا كنت تسمحين.

– يمامة... أنت عنوان المحبة والوفاء..لقد رجوتك بأن تأتي معي

إلى هنا. فجئت والآن، أرجوك أن تعود إلى أهلك وذويك، وسأوفر لك جميع أسباب الراحة في الطريق..ولكن لي رجاء آخر، هو في الحقيقة مهمة أرغب في أن أكلفك بها، لدى أبيك الطبيب، الذي حرم نفسه من إبنته، كيلا أحرم أنا من صديقتي.

– أنا طوع أمرك.

– خذي هذا القميص الأشهب، الذي سيعرف بإسم «إيزابيلا» وقولي ليوسف الصباغ وشريكه عامر، إنني أرغب إليها في إدخال هذا اللون الجديد بين الألوان التي يصبغان بها الأقمشة والأنسجة، فإن أمنيتي بعد الآن أن ينتشر هذا اللون بين الناس، ويعم أسبانيا والأرض المنخفضة وكل بلد ترفرف عليه أعلام أخي الملك وزوجي الأرشيدوق.

– سأحقق لك هذه الأمنية، أيتها الأميرة العزيزة، وآمل أن تحققي أنت الأمنية التي تقابلها في صدر يمامة التي أحبتك وأخلصت لك.

– سأحققها، أيًا كانت هذه الأمنية.

– أريد منك أن تكوني واسطة خير بين أخيك الملك، وبين أسرتنا، إنني أعرف أن أبي وشريكه عامر يرغبان في الرحيل عن أسبانيا، وإتخاذ بلاد المغرب الأقصى وطنًا لهما.

– سأطلب من أخي فيليب أن لا يمانع في ذلك.

فأخذت يمامة القميص الأشهب، وتعانقت الصديقتان، وكان الفراق أليمًا شديد الوقع على المرأتين الوفيتين.

في غرناطة، حيث وافت يمامة أباها بعد غياب دام أكثر من ستة أعوام بذل يوسف الصباغ جهده وبراعته في تكييف صباغة الكتان باللون الاشهب «الأيزابيلي» المطابق للون القميص الذي حملته إبنته معها، فجاءت النتيجة محققة لأمنية إيزابيلا إلى غمرها الفرح يوم تلقت القطعة الأولى من النسيج الفاخر المصبوغ باللون الذي يحمل إسمها.

وأقبل الناس على شراء الكتان الأشهب، فإنتشر في أنحاء أسبانيا وبلاد الأرض المنخفضة، ولقن يوسف الصباغ فنه، وأفضى بسر مهنته، إلى بعض أصدقائه من العرب والأسبانيين المشتغلين في صناعته.

وفي سنة ١٦٠٦، رحل الشريكان، يوسف وعامر، إلى بلاد المغرب وإستقرا في مدينة «القصر الكبير» حيث إلتقيا بكثيرين من العرب النازحين من أسبانيا، وكان ذلك في عهد الشرفاء السعديين.

وأنشأ الرجلان هناك صناعة جديدة، وأدخلا على أشكال الصباغة والدباغة ألوانًا غير مألوفة، ومن بينها اللون الأشهب الإيزابيلي، الذي أطلق عليه الناس فيما بعد إسم «اللون السوسني».

كان يوسف الصباغ قد جاوز السبعين من العمر، وكان شريكه عامر المواد أصغر منه بعشرين سنة أو أكثر.

وقال يوسف لعامر، في مساء يوم ممطر، وهما يرتشفان ماء النعناع الذي أعدته لهما يمامة:

– ياعامر..أشعر بدنو أجلي..وستكون أنت الوارث لجميع أسرار

المهنة التي إشتهرت بها أسرتي، وإستمدت منها إسمها، أما ثروتي فإنها عائدة إلى إبنتي الوحيدة، وهي البقية الباقية من هذه الأسرة.

فقالت يمامة، محاولة أن تبدد الأفكار السوداء التي تساور أباها:

– سوف تعيش طويلًا يا أبي، وسوف تشملنا بركاتك أعوامًا عديدة أخرى.

– لا يا إبنتي..إن الأعمار بيد الله..والأجل أصبح قريبًا..وسأرحل مطمئنًا عن هذا العالم، لو تحققت لي من الآن أمنية ليست وليدة هذه الساعة، بل يرجع منشأها إلى اليوم الذي أصبح فيه عامر وحيدًا في هذه الدنيا، بعد وفاة زوجته، منذ ثلاثة أعوام.

أدرك الشريك، وأدركت الإبنة، ماذا يعني يوسف الصباغ بهذه العبارات.

وتحققت أمنية الشيخ الذي عاش سنواته الأخيرة مطمئن البال قرير العين، في بيت واحد مع إبنته يمامة وزوجها عامر العواد.

وإتسعت صناعة الصباغة وإزدهرت إزدهارًا بعد موته، وأصبح اللون الأشهب «الإيزابيلي» كما كان يسمى في أسبانيا، والأشهب «السوسني» كما كان يسمى في بلاد العرب المغاربة والمشارقة، من الألوان الرائجة التي يقبل عليها الرجال والنساء على السواء، وظلت يمامة الطبيبة العربية، توافي صديقتها الأسبانية إيزابيلا بالكتان المصبوغ باللون الذي تحبه، حتى وافاها الأجل في عام ١٦٣٣، وكان زوجها ألبيرت قد سبقها إلى العالم الآخر، في عام ١٦٢١.

أما عامر العواد وزوجته يمامة بنت الصباغ، فقد رزقا ذرية حافظت على صناعتها وإتقانها وسمعتها، أعوامًا عديدة في مدينتي القصر الكبير وفاس، بالمغرب الأقصى، وفي الديار المصرية والشامية.

مرتا ... سلطانة المغرب

كان مواطنوها يسمونها «المغربية» والمغاربة يسمونها «الإفرنجية»، وقد خدمت الوطن الذي تبناها بأمانة وإخلاص.

كان الجنرال «جورجو» رفيقًا لنابليون الأول في منفاه بجزيرة «سانت هيلين»، وقد نقل في مذكراته العبارة الآتية عن لسان الإمبراطور العظيم: (كانت سلطانة المغرب في ذلك الوقت فرنسية من جزيرة كورسيكا. وقد جاء أخوها (فرانشسكيني) إلى باريس وعرض على وزير الشئون الخارجية أن يسافر إلى المغرب ويعمل لمصلحة فرنسا. فإعتقدت في باديء الأمر أن في المسألة نصبًا وإحتيالًا، ولكن الوزير تثبت من الحقيقة فأعطيته ثلاثين ألف فرنك لهذا الغرض. وقد كللت المفاوضات بالنجاح، وبسط إمبراطور المغرب حمايته على الفرنسيين هناك وأسدى إلينا خدمات جليلة. فأرسلت إليه هدايا بنصف مليون فرنك».

هذا ما قاله الإمبراطور الفرنسي للقائد الذي عاش معه في المنفى. فمن هي تلك السلطانة الفرنسية التي تحدث عنها، والتي ولدت مثله في جزيرة كورسيكا؟

إسمها «مرتا فرانشسكيني» وإسم أبيها «جاك ماريا» وهو من سلالة

الكونت فرانشسكو كولونا، النبيل الروماني الذي إستوطن جزيرة كورسيكا سنة ١٥٠٠. وقد ولدت مرتا في ٢ من يونيو سنة ١٧٥٦ ببلدة كوربارا الصغيرة، الرابضة بين الصخور على سفح جبل يشرف على البحر.

وكان البحر في ذلك الوقت مسرحًا لأعمال القرصنة، يتبارى فيه القراصنة المنطلقون من مواني إيطاليا وفرنسا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى، وكانت جزيرة كورسيكا عرضة لغزوات القراصنة من العرب والبربر، الذين كانوا ينزلون على شواطئنا، ويسبون النساء والبنات والشبان، ويبيعونهم في أسواق الرقيق جريًا على العادة المتبعة في ذلك العهد، حيث لم يكن الرق قد ألغي بعد، وحيث كان الإنسان يستعبد الإنسان، والشعوب تستعبد الشعوب.

وحدث ذات يوم أن هبطت أسرة فرانشسكيني من بلدتها إلى شاطئ البحر في نزهة مسائية، فداهمها القراصنة وخطفوها وحملوها إلى سفينتهم قبل أن يتمكن رجال البلدة من نجدتها، فوقفوا على الشاطئ ينظرون إلى السفينة تبتعد وعليها جاك ماريا وزوجته وولداه فنشنتي وأوغستينو وإبنته مرتا الصغيرة.

وإنقطعت أخبار الأسرة بضعة أعوام.

وفجأة عاد الرجل والزوجة والولدان إلى كورسيكا، فرحب بهم أهل البلدة، وسألوهم بلهفة عن مصير الطفلة مرتا، فقص عليهم جاك ماريا قصته قال:

«ذهب بنا القراصنة إلى تونس حيث عرضونا للبيع في سوق الرقيق، فكان من حسن الحظ أن إبتاعنا أحد وكلاء الباي فأقمنا جميعًا في قصره، وعوملنا معاملة حسنة، ولكننا كنا في عداد الأسرى الأرقاء، نقوم بالأعمال التي يعهد إلينا بها، ونبكي الحرية الغالية والوطن المفقود. ولم يكن بوسعنا أن نفكر في الهرب لتعذر وسائله ولشدة الرقابة عند منافذ المدينة وعلى شاطئ البحر، فرضخنا لحكم القدر وبتنا ننتظر الخلاص من الرب القادر على كل شيء!

«قضينا في الأسر والعبودية ثلاثة أعوام، كنت في خلالها قد إنصرفت إلى دراسة اللغة العربية فأتقنتها قراءة وكتابة، وكأن الله قد إستمع إلى صلواتنا، فقدر لي أن أطلع مصادفة على سر مؤامرة دبرها فريق من الضباط والجنود لإغتيال سيد البلاد، وإسمه سيدي علي باي، فأفضيت إليه بما علمت من أخبار المتآمرين، وكنت سببًا في إنقاذ حياته، فأغدق على العطايا والنعم، وأعاد إلي حريتي، وأمر بأن تمهد لي سبل العودة إلى بلادي.

«تنفسنا جميعًا الصعداء، وأسرعت إلى الميناء فإستأجرت سفينة صغيرة وخمسة من البحارة، وركبت مع الأسرة وإنطلقت بنا السفينة ميممة شطر جزيرتنا المحبوبة! غير أن كارثة جديدة حلت بنا، لا تقل شدة من الكارثة السابقة، فقد هاجم القراصنة المغاربة سفينتنا وهي في عرض البحر، وعلى مرمى النظر من ساحل كورسيكا، فقتلوا رجالها،

وأضرموا فيها النار، وحملونا نحن إلى سفينتهم، وعادوا بنا إلى بلادهم حيث عرضونا مرة ثانية للبيع في سوق الرقيق!

«وكنا في هذه المرة من نصيب أمير مغربي واسع الثراء والجاه..لم يشأ أن يفرق بيننا فإشترى الأسرة كلها دفعة واحدة، كما فعل وكيل الباي من قبل، وهكذا شاءت الأقدار التي أنقذتنا من الأسر والعبودية في تونس، أن تعيدنا إليهما في المغرب، قبل أن نتمتع بنسيم الحرية، وبدون أن تكتحل عيوننا برؤية الوطن العزيز!

«ولكنني جعلت أفكر في الخلاص منذ اللحظة التي وطئت فيها أقدامنا أرض المغرب. وخطر لي في الحال خاطر وضعته بلا إبطاء موضع التنفيذ فكتبت رسالة باللغة العربية إلى سلطان المغرب مولاي محمد، رويت له فيها ما حدث لي في تونس، وكيف إنني أنقذت حياة الباي من كيد المتآمرين، وطلبت أن ينظر إلى والى أسرتي التي تصحبني بعين العطف والتقدير. فرق السلطان لحالنا، وأبدى رغبته في رؤيتنا فذهبنا إليه في قصره ومعنا السيد المربي الذي إشترانا، وبعد أن ثبت للسلطان إنني لم أكذب فيما إدعيت، أمر بأن يطلق سراحنا، وأن توضع تحت تصرفنا سفينة من سفنه، تحملنا إلى كورسيكا في حراسة كافية تضمن سلامتنا، وتمنع وقوعنا في أسر القراصنة مرة ثالثة!

«غير أن شيئًا واحدًا نغص علينا ما شعرنا به من فرح وإطمئنان: فقد إسترعت إبنتي مرتا، وفي اليوم في الثالثة عشرة من العمر، أنظار السلطان بجمالها الباهر وشبابها الغض، فرغب في الإحتفاظ بها في قصره بين نسائه وجواريه، قائلًا لي إنه سيجعل منها سيدة البلاد الأولى ويرفعها إلى أوج العلى والسعادة والهناء».

سكت جاك ماريا لحظة، وترقرقت الدموع في عينيه، ثم إستطرد قائلًا:

«ولهذا أيها المواطنون والأصدقاء، فإنكم ترونني عائدًا الآن إليكم مع زوجتي وولدي، محملين بالتحف والأموال والأرزاق، لكنكم لا ترون معنا تلك الإبنة الحبيبة، التي إضطررنا إلى التخلي عنها هناك، والتي أرجو أن لا تطول غيبتها علينا».

لم تطق الاسرة صبرًا على هذا الفراق. وما مرت شهور على عودة جاك ماريا إلى بلدته كوربارا، حتى راح يعد العدة للقيام بمغامرة خطرة لإنقاذ إبنته وإنتزاعها من قصر السلطان بمدينة فاس. فجمع حوله فريقًا من الجبليين الأشداء وجهز سفينة أقلعت به وبرفاقه إلى المغرب، فإجتازت البحر بدون أن يلحق بها سوء، وبلغت بالسلامة ساحل المغرب، ولكن الحظ العاثر أراد للكورسيكيين ان يصلوا إلى «رباط الفتح»، في الوقت الذي كان فيه وباء الطاعون متفشيًا في البلاد، فأصيب جاك ماريا بالمرضى في أول يونيو سنة ١٧٧٠ ميلادية الموافقة لسنة ١١٨٤ هجرية وهرول رفاقه مسرعين إلى سفينتهم وعادوا بها إلى جزيرتهم خائبين.

ومرت الأعوام بدون أن يتسرب إلى كورسيكا لا كثير ولا قليل من أخبار الفتاة المقيمة في قصر السلطان مولاي محمد بفاس. وعبثًا حاول أخواها وأمها الإتصال بها بوساطة القناصل والتجار وأصحاب السفن فقطعت الأسرة كل أمل في لقاء الإبنة التي كان سكان القرية يسمونها «المغربية» في حين أن المغاربة كانوا يسمونها «الإفرنجية».

ولكن مرنا لم تيأس من الإتصال بأهلها وعشيرتها. ففي سنة ١٧٨٦ ميلادية. الموافقة لسنة ١٢٠٠ هجرية رست في ميناء كالفي على مقربة من بلدة كوربارا، قافلة من السنن المغربية نزل منها جماعة من الأمراء العرب، يتبعهم حراس مسلحون، وعبيد يحملون عشرات من الصناديق والأكياس: تلك هي البعثة التي أوفدتها مرتا فرانشسكيني «سلطانة المغرب» إلى بلدتها، بأمر من زوجها السلطان مولاي محمد بن عبد الله الحسني!

وعلم سكان جزيرة كورسيكا بما كانوا يجهلون، وقص عليهم رجال البعثة قصة الفتاة التي ملكت قلب مولاهم فأجلسها على العرش، وجعلها موضع ثقته، وإتخذها زوجة وصديقة ومستشارة مسموعة الكلية نافدة الرأي!.

ما الذي حدث لمرتا بعد فراقها عن أبيها وأمها وأخويها في مدينة فاس، وهي بعد في الثالثة عشرة من العمر؟

لقيت الفتاة حظوة في عيني السلطان، وما مضت ثلاثة أعوام على دخولها القصر حتى كان مولاي محمد قد بر بوعده لأبويها وأخويها فجعل منها سيدة النساء في حرمه، وإتخذها زوجة له، وأحلها في نفسه المنزلة الأولى.

كان مولاي محمد قد خلف أباه مولاي عبد الله على عرش المغرب في سنة ١٧٥٧ ميلادية، الموافقة لسنة ١١٧٠ هجرية فعرفت البلاد في أيامه عهد رخاء وطمأنينة وسعة نفوذ. فقد عقد ذلك العامل العظيم معاهدات صداقة وتعاون مع بعض الدول الأوربية، وجلب إلى

عاصمة ملكة لفيفا من الخبراء الأوربيين الذين هجروا بلادهم وإتخذوا المغرب موطنًا والإسلام دينًا، فإستعان بهم لتحقيق طائفة من الإصلاحات في في جميع مرافق الحياة، وكان يتبادل الرسائل والوفود والهبات مع الملوك والأباطرة والأمراء في الشرق والغرب، وكانت زوجته السلطانة مرتا تتولى كتابة الرسائل إليهم، والرد على خطاباتهم، وتفضي إلى زوجها بآرائها الصائبة في كل كبيرة وصغيرة من شئون الدولة، فإزداد إعجابه بها، وتضاعف حبه لها.

وظلت مرتا تحدث السلطان عن أهلها وبلدتها، فأراد في النهاية أن يستجيب لرغباتها، وأمر بأن توفد إلى كوسيكا بعثة تتولى البحث عن أسرة فرانتشيسكيني في كوربارا، ونأتي بها إلى المغرب إذا شاءت، بعد إستئذان لويس السادس عشر ملك فرنسا في ذلك الوقت.

تلك هي البعثة التي وصلت في قافلة من السفن المغربية إلى ثغر كانفي، وأطلعت سكان الجزيرة على حقيقة ما حدث للطفلة التي إفتقدوها منذ أعوام.

وكتبت مرتا إلى ملك فرنسا تنبئه بسفر البعثة إلى كورسيكا، فإهتم لويس السادس عشر بالأمر، وبعد بضعة أسابيع من وصول الرسل المغاربة إلى كوربارا، غادروا ميناء كالفي في سفنهم، وقد إنضمت إليها سفن فرنسية أخرى، تحمل أسرة فرانشسكيني ورهطًا من سكان الجزيرة، إلى بلاد المغرب.

وأمر مولاي محمد بأن تفتح أبواب قصره للوافدين من موطن

زوجته المحبوبة، فإصطف «الحرس الأسود» في طريق القصر، وحيا الضيوف بقرع الطبول والنفخ بالأبواق، وإستقبل السلطان في أفخم ردهات القصر أم زوجته وأخويها، وكان اللقاء مؤثرًا، فألقت مرنا بنفسها بين ذراعي أمها التي لم تعرفها لأول وهلة، وإستأذنت زوجها في أن تقبل الأخوين اللذين إفترقت عنهما وهما في مقتبل العمر، وحلت الأسرة في جناح من القصر، وقد غمرها الفرح وإكتنفتها السعادة!

وكانت السلطانة الفرنسية قد رزقت بنتًا سمتها أيضا «مرتا» وعللت النفس بأن ترزق إبنًا قد يخلف أباه على العرش. لكن هذا الأمل لم يتحقق، فحصر السلطان وراثة العرش في إبنه الأكبر يزيد، الذي رزقه من إمراة أرلندية كان أبوها قد إعتنق الإسلام وإستوطن المغرب.

وكان يزيد يكره زوجة أبيه الكورسيكية ويكيد لها في الخفاء، بل كان يكيد لأبيه ويتآمر عليه ويسعى لإنتزاع الملك منه قبل موته، وبلغ الجحود بهذا الإبن العاق أن رفع راية العصيان وجمع أنصاره في الجبال، فقرر مولاي محمد أن يعاقبه على غروره، ويقضي على ثورته في مهدها. فحشد جيشًا من حرسه الخاص وتأهب للزحف بنفسه على مقر الإبن الثائر ولكن يدًا خفية دست له السم في الطعام، فشعر السلطان بأن ساعته قد دنت، ودعا زوجته المختارة إليه، وهمس في أذنها قائلً:

– مرتا..لقد أحببتك وأخلصت لك بقدر ما أحببتني وأخلصت لي ولك الآن أن تعودي إلى أهلك إذا شئت، أو أن تبقي في هذا البلد المضياف معززة مكرمة..ولكن إحذري يزيدا فقد يدس لك السم كما

دسه لي. ولا تثقي إلا بولدي سليمان..الذي أرجو أن ينتقم لي من أخيه وأن يؤول إليه الملك من بعدي، لكي يحافظ على هذا الوطن قويًا منيعًا.

وأسلم مولاي محمد بن عبد الله الروح بين أحضان مرتا الفرنسية سلطانة المغرب، في الحادي عشر من شهر أبريل سنة ١٧٩٠، الموافقة لسنة ١٢٠٤ للهجرة.

تحققت أمنية السلطان الراحل بعد موته، فلم ينعم مولاي يزيد بالملك طويلًا، بل مات في ظروف غامضة، وإقتتل إخوته بضعة شهور، وإنتهى ذلك الصراع بإرتقاء مولاي سليمان بن محمد عرش آبائه وأجداده وظل جالسًا عليه حتى وافاه الأجل في سنة ١٨٢٢ ميلادية، الموافقة لسنة ١٢٣٧ هجرية.

وكان هذا السلطان بارا بذكرى أبيه مولاي محمد، وقد نسج على منواله في السياسة والإدارة، وأحاط زوجة أبيه الفرنسية بمظاهر الإكرام والإجلال، وكانت المسكينة قد فقدت إبنتها الوحيدة، فوجدت بعض العزاء في معاملة السلطان الجديد لها، وإجتماع أعضاء أسرتها حولها بعد طول الفراق.

ومن أعمال هذا السلطان الباهرة، قضاؤه على شرور القرصنة، ودعوته ملوك أوربا إلى التعاون معه في تأمين السلامة للمسافرين في البحار، وهو الذي أرسل الجنرال نابليون بونابرت، وكتب إليه يقول أن سلطانة المغرب فرنسية مثله من جزيرة كورسيكا، وكان يعني زوجة أبيه مرتا فرانشسكيني. وفي سنة ١٧٩٩، أوفد مولاي سليمان شقيق السلطانة السابقة، فنشنتي فرانشسكيني في بعثة إلى بونابرت. وفي أثناء

وجود البعثة في باريس، تفشى وباء الطاعون مرة أخرى في المغرب فأصيبت مرتا بالمرض القاتل كما أصيب بها أبوها من قبل، وماتت في ١٥يونيو سنة ١٧٩٩ الموافقة لسنة ١٢١٣ للهجرة.

ماتت مرتا فرانشسكيني سلطانة المغرب في الأربعين من العمر، بعد أن جلست على العرش وقاسمت زوجها مولاي محمد، حلو الحياة ومرها نحو عشرين سنة. ولم يسعدها الحظ بأن ترى وطنها كورسيكا منذ أن خطفت منه طفلة صغيرة ولم تترك أبناء ولكنها تركت ذكرى طيبة عطرة، وخدمت الوطن الذي تبناها بأمانة وإخلاص ووفاء.

نفيسة الجزائرية

ثـورات متواصـلة، معـارك رهيبـة تضـحيات متوالية، مقاومة ضارية: هذا هو تاريخ الجزائر العربيـة منـذ عـام ١٨٣٠، وكـان الختـام أن أطلت شمس الحرية على البلد الثائر والشعب الأبي في سنة ١٩٦٢.

طاف قائد الحصن على جنود الحامية في المراكز التي حددها لهم بدقة، وتلقى منهم جماعة بعد جماعة وفردًا بعد فرد، القسم الذي إرتبطوا به تجاه الوطن وتجاه الله وتجاه أنفسهم، بأن يدافعوا عن حصنهم دفاع المستميتين، حتى إذا لم يبق منهم على قيد الحياة غير العدد الكافي من الرجال لحمل الجرحى والإنسحاب بهم إلى مواقع أخرى، تسللوا إلى الخارج تاركين للعدو جدرانًا متهدمة وإطلالًا متراكمة!

وواصل العدو هجومه، وواصلت الحامية دفاعها.

من هم المدافعون؟ ومن هم المعتدون.

كانت الدولة الفرنسية تبيت الشر للجزائر منذ أعوام عدة، فقد أمد الجزائريون الشعب الفرنسي بالمال والمؤن والمساعدات المختلفة، في أيام محنته، بينما كانت الدول الأوربية تضرب عليه الحصار وتحاول تجويعه،

فبلغت ديون فرنسا للجزائر ما يزيد على ستة مليارات من الفرنكات!

حدث ذلك في عهد حاكم الجزائر الداي علي بن أحمد، وفي عهد خلفه الداي حسين بن حسن.

ولما إستقرت الأمور في فرنسا، بعد الإضطراب والإفلاس، عمد الداي إلى المطالبة بدينه، وتلكأت الحكومة الفرنسية في الدفع، بل جعلت تفكر في التخلص من إلتزاماتها والتهرب من تسديد ديونها، حتى ولو إضطرت إلى إستخدام القوة.

وأتيحت لها الفرصة الملائمة: فقد لبت الجزائر نداء الدولة العثمانية في حربها مع روسيا وإنجلترا وفرنسا، إبان ثورة اليونان في سنة ١٨٢٧ وكان الأسطول الجزائري من بين الأساطيل التي تحطمت في معركة نفارين البحرية.

وفي الوقت نفسه، عمد رسل فرنسا إلى إصطناع خلاف مع الداي حسين بن حسن، فتحوه بوقاحة، وغضب الداي فلوح بمروحته في وجه القنصل الفرنسي، ولامست المروحة وجه الرجل، فعدت حكومة فرنسا ذلك العمل إهانة موجهة إليها في شخص ممثلها، وقررت أن تهاجم الجزائر لمحو الأمانة.

وعلى هذا، فإنها لن تكتفي بالتهريب من دفع الدين المطلوب منها، بل قررت أن تحتل بجيشها أرض الجزائر، وتحولها إلى مستعمرة تستأثر بخيراتها، وتستولي على الأموال الطائلة التي قال لها جواسيسها

أنها مكدسة في خزائن الداي بمدينة الجزائر، وهي كافية لسد نفقات الحملة العسكرية مهما تبلغ أرقامها.

خطة إستعمارية رسمت بإمعان تام، على أساس أن تصيب ثلاثة أهداف بحجر واحد: والتخلص من الدين وملء خزينة فرنسا بأموال الجزائر، والإستيلاء على بلد مترامي الأطراف كثير الموارد.

وفي شهر يونيو من سنة ١٨٣٠ميلادية الموافقة السنة ١٢٤٥ هجرية أبحر الأسطول الفرنسي سربًا بعد سرب في طريق العدوان. وقد خلا البحر المتوسط من أسطول جزائري يرد ذلك الغدر الذي لم يكن أحد يتوقعه. وفي الرابع عشر من ذلك الشهر، نزلت طلائع الجيش الفرنسي في ميناء سيدي فرج. وإتخذه القائد العام الجنرال بورمون، وزميله الأميرال دوبيري، قاعدة للعمليات الحربية، التي جهزت لها فرنسا ثلاثين ألفًا من جنودها.

وصمد الجيش الجزائري بالرغم من المفاجأة، وهرع السكان أيضًا إلى صيد الغزاة بما توافر لهم من سلاح وعتاد، ولحقت النساء برجالهن يحملن لهم الذخيرة ويتولين إعداد الطعام ويضاعفن حماستهم بالزغاريد والأهازيج.

توالت المعارك خلال ثلاثة أسابيع كاملة، تكبد فيها المعتدون خسائر فادحة، ولم يتمكنوا من السيطرة على مدينة الجزائر، عاصمة البلاد، إلا في اليوم الخامس من شهر يوليو.

وصلوا إلى مداخل «القصبة» مركز الدفاع الرئيسي، ولكن حامية الحصن الكبير المشرف على المدينة ظلت تواصل القتال من وراء الأسوار العالية والأبراج المنيعة.

لم يكن عدد المدافعين عن الحصن يزيد على ألفين من المقاتلين، بينهم أيضًا نساء يقمن بخدمتهم، ويواسين جرحاهم، ويوارين قتلاهم في تراب الدهاليز.

وحاصر الحصن العاصي عشرة آلاف من جنود بورمون!

في ذلك الظرف العصيب، طاف قائد الحامية، «الخزنجي» أي وزير المالية الجزائرية، على جنوده في مراكزهم، فأقسموا بين يديه على مواصلة الدفاع بقدر ما تسمح به طاقاتهم البشرية.

وإمتد الحصار أسبوعًا كاملًا.

كلما فتحت مدفعية العدو ثغرة في الأسوار، كان جنود الحامية الباسلة يسارعون إلى سدها بالحجارة، وأحيانًا بجثث القتلى من رفاقهم!

أسبوع كانت أيامه مليئة بالتضحيات المتواصلة، شهدت كل ساعة من ساعاته ألوانًا رائعة من البطولات الحقة: وتساقط الشهداء واحدًا بعد واحد، حتى إذا ما أقبلت نهاية الأسبوع، لم يكن قد بقي من الحامية غير بضع عشرات من الرجال، أنهكهم التعب، ونال منهم الحرمان كل منال، ومن حولهم خرائب وأطلال.

كان الجنود جميعًا قد بروا بالقسم الذي قطعوه على أنفسهم..فأصدر القائد أمره إلى البقية من أبطاله، بأن يحملوا الجرحى

وينسحبوا من الحصن سالكين المنافذ التي يجهلها العدو.

في ركن من أركان الحصن، وقف «بوعمران»، وزوجته «نفيسة» يتبادلان الرأي، وسط الضجيج المتواصل وهزيم المدافع الذي لا ينقطع.

للرجل والمرأة ثلاثة أبناء في ريعان الشباب. وقد إلتحقت الأسرة كلها بحامية الحصن الكبير. فإستشهد واحد من الأبناء الثلاثة في أثناء الحصار، وخرج الإثنان الباقيان مع من خرج من الجنود الذين نجوا من الموت.

والأب والأم يعرفان جيدًا، ما سوف يفعله الإثنان، فلا شك في أنهما سيثأران لأخيهما القتيل، ويستأنفان الجهاد في ميادين أخرى، مع من يواصلون القتال في المدن والقرى والصحاري والجبال.

وقال بو عمران:

– أما نحن يا نفيسة، فإن في وسعنا أن نأخذ بثأرنا من الآن، وبدون أن نغادر هذا الحصن، وقد تموت في سبيل الثأر، ولكن بعد أن نرضي الله والوطن وفقيدنا العزيز.

وقالت المرأة:

– رأيك دائمًا هو الرأي الصائب يا بو عمران، ولن أخالفك اليوم، كما إنني لم أخالفك في أي يوم مضى، فماذا ترى أن نفعل؟

كان الجنود ينسابون إلى الخارج حاملين الجرحى، ويتضاءل عدد الباقين منهم داخل الأسوار في إنتظار دورهم للإختفاء في الدهاليز.

وإستطرد بو عمران يقول:

- لقد وارينا شهيدنا التراب. وودعنا أخويه على أن نلتقي بعد أن يتم الإنسحاب..ولكننا لن نلتقي.

فسألت الزوجة:

- ماذا تعني!

وبلهجة الآمر الذي إتخذ قرارًا وصمم على تنفيذه، قال بو عمران:

- سوف ننتظر دخول الأعداء إلى الحصن، وإنتشارهم في أرجائه بعد أن يكون رفاقنا قد إبتعدوا وأصبحوا في أمان، ثم...

- ثم ماذا.. سيقتلنا الفرنسيون.

- لا بل سنقتل منهم عشرات ومئات، قبل أن يتمكنوا من تثبيت أقدامهم في الحصن، وقبل أن يصلوا إلى مستودع البارود.. ينبغي ألا يستولي الفرنسيون يا نفيسة إلا على أكوام من الخرائب.

- فهمت يا بو عمران.

- إذن.. فلا شك في أنك توافقينني على ما إقتربت الإقدام عليه.

- هيا بنا.. وكوني رابطة الجأش كعهدي بك في كل وقت، يا نفيسة..فقد لا نخرج من هنا.. وندفن تحت أنقاض الحصن، مع الأعداء..

وإحتضن الرجل زوجته.. ثم أخذها في يدها، وإختفى معها في فجوة بجوار الركن الذي كانا واقفين فيه.

بينما الجنود الفرنسيون يتدفقون إلى صحن القلعة، في جلبة المنتصرين، وترتفع أصواتهم بأناشيد الظفر، دوى إنفجار هائل زلزل الأرض تحت أقدامهم، وهز ما تبقى قائمًا من الجدران الضخمة، فتطاير التراب في الجو، وإرتفعت في الفضاء سحب سوداء، وتساقطت الحجارة في كل صوب، وحلت صيحات الذعر والهلع محل أناشيد النصر، وهوت الأسوار بأبراجها، وتحول الحصن الكبير، إلى قبر كبير.

أشعلت نفيسة وزوجها بو عمران النار في البارود، فكان الإنفجار الذي حول المكان إلى جحيم متأجج.

وهلك من هلك من الجنود المهاجمين. ودخل رفاقهم في أثرهم ليحتلوا الأطلال.

وقتلت نفيسة وزوجها، وراحا شهيدي الواجب، ولحقا بإبنهما الذي سبقهما إلى عالم الخلد.

أما الإبن الثاني والإبن الثالث، فقد إبتعدا سليمين، ليلتحقا بالمجاهدين، في ظاهر المدينة.

وإحتل الفرنسيون عاصمة الجزائر، ونهبوا القصبة، ورفعوا أيديهم على خزائن الحكومة الجزائرية الملونة ذهبًا وفضة وحجارة كريمه فنقلوا ذلك الكنز الهائلإالى بلادهم، حيث تلقاه ملكهم شارل العاشر ورجال حكومته بمظاهر الفرح والإبتهاج.

وبلغت قيمة ما دخل خزينتهم بعملية السطو تلك، ثمانية عشر

مليارًا من الفرنكات. ولما إنتهى الغزو، لم تزد نفقات الحملة التي قامت به على ثمانية وأربعين مليونًا ونصف مليون من الفرنكات فقط!

ولما أضافوا إلى ثمرة سطوهم قيمة الدين الذي تخلصوا منه، وهو ستة مليارات من الفرنكات، وجدوا أنهم قد إسترجعوا نفقات الحملة، وربحوا نحو أربعة وعشرين مليارًا، أمر الملك بأن يستعان بها لسد العجز في الميزانية، وإنقاذ الدولة من الإفلاس.

وظنوا أن الأمر قد إستتب لهم في الجزائر، بعد أن دخلوا عاصمتها ولكن ظنهم خاب وآمالهم تبددت.

فقد إستأنف الشعب الجزائري القتال، وتنادى السكان في المدن والقرى إلى حمل السلاح. وحشدت القبائل جموعها، وإستمرت الحرب قائمة على قدم وساق.

ووحد الأمير عبد القادر بن محيي الدين صفوف مواطنيه وقادهم في جهادهم الرائع وكان ولدا بو عمران ونفيسة بين المجاهدين الذين حاربوا تحت لواء البطل العظيم.

ودارت الأيام دورتها، وتوالت الأعوام..فقتل واحد من الأخوين في ثورة نشبت ضد الفرنسيين في سنة ١٨٥٧، بعد رحيل عبد القادر عن وطنه..

وفي سنة ١٨٦٣ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٧٩ كان الأمير الجزائري يقيم في دمشق، التي إتخذها مقرًا له في منفاه، وهناك لحق به قاسم بو عمران، أخ الشهيدين اللذين سقطا على أرض الجزائر، والباقي

على قيد الحياة. من أسرة بطل القصبة، الذي نسف الحصن على رءوس الفرنسيين في سنة ١٨٣٠، ودفن نفسه مع زوجته تحت أنقاضه.

وقضى قاسم بقية حياته في دمشق، مع المغاربة الذين إلتفوا حول أميرهم وقائدهم السابق، وأنشئوا في المدينة العريقة حيًا عرف بإسمهم وتناسلوا وتكاثروا..

أما وطنهم الجزائر، فقد ثار مرة بعد مرة، وسنة بعد سنة، على الأغراب المغتصبين. وكان الثائرون، كلما أخمدت لهم ثورة، عادوا، أو عاد أبناؤهم، أو عاد أحفادهم إلى إشعال غيرها، والثقة تملأ نفوسهم بأن يوم النصر لابد آت لاريب فيه، وأن الحرية بنت الجهاد، وإن الحق لا يضيع مادام صاحبه يطالب به، والسيف بيده.

توكرت غادة الوادي

إسمها «توكرت»، ولكن المعجبين بها
كانوا يسمونها «البهجة» ويصفونها بأنها
«غادة وادي الريغ».

إلى الجنوب من مدينة قسطنطينية بالجزائر، وفي جوف الصحراء يمتد وادي يعرف بوادي الريغ على مسافة كبيرة، تتخللها سلسلة من الواحات الخضراء والجداول والآبار، وتكتنفها غابات من النخيل بصعب على النظر أن يدرك مداها، وعلى طول الوادي، تقبع المدن والقرى والمزارع، في ظلال الأشجار وحماية الهضاب.

وأهم الواحات وأكبرها، في وادي الريغ، مدينة «توكرت» وملحقاتها. حيث يبلغ عدد السكان نحو خمسة وثمانين ألف نسمة، معظمهم من البربر المستعمرين، وهم يفاخرون بمدينتهم توكرت، وقصبتها أي قلعتها، ومتاجرها الخاصة بمختلف السلع، وعشرات المآذن التي تخترق فضاءها، وينطلق من شرفاتها، خمس مرات في اليوم، النداء الشجي: «حي على الصلاة، حي على الفلاح!.»

كان إسمها «النزلة» لا «توكرت» والإسم الذي تعرف به اليوم قصة مثيرة، يرويها لك المطلعون من السكان، لو جالستهم في أمسياتهم حول

المواقد أو المناسف. ويخيل إليك، وأنت تصغي إلى روايتهم، إن فيها مزيجًا من الحقيقة والخيال، ومن التاريخ والأسطورة.

النزلة بلدة قديمة، لا يمكن تحديد الزمن الذي أنشئت فيه، ولا معرفة القوم الذين أنشئوها في وادي الريغ، وكانت قد بلغت درجة من الإزدهار عظيمة، يوم دخلها الإسلام إبان إنتشاره في أقاليم أفريقية الشمالية، فإعتنق سكانها وجيرانهم في قرى الوادي وواحاته الدين الجديد، فوجًا بعد فوج، وإمتزجت لغتهم البربرية الأصيلة بكلمات عربية تزايدت مع الأيام. وفي أوائل القرن الهجري التاسع –الموافق القرن الخامس عشر للميلاد–كانت البلدة تختار حكامها من رجال الدين أنفسهم، فيتولون فيها السلطتين الروحية والزمنية في آن واحد.

في ذلك الوقت، كانت تعيش في النزلة إمرأة شابة على جانب كبير من الجمال الأخاذ توقع الشبان والكهول –وحتى الشيوخ– في شراك حسنها، فيتوافدون عليها من جوانب الوادي، ويغدقون عليها الأموال والهدايا، مقابل ما توفره لهم من أسباب اللهو والتسلية.

إسمها توكرت، ولكن المعجبين بها سموها «البهجة» وكانوا يصفونها بأنها «غادة وادي الريغ.».

شاع الفساد بسببها. فقرر الشيوخ المسئولون عن صيانة الأمن وسمعة البلدة، أن يبعدوا الغانية عن النزلة تخلصًا من الفتنة، فأنذروها بالرحيل، ولم تمانع توكرت في تنفيذ الإنذار، ولكنها إنتقلت إلى ظاهر البلدة، حيث نصبت خيمة إستقرت فيها، فجاءت النتيجة على غير ما كان الشيوخ يأملون!

أصبحت الخيمة المنصوبة خارج البلدة ملتقى العشاق العديدين، ومقصد طلاب اللهو من سكان النزلة. وبدءوا الواحد بعد الآخر ينصبون خيامهم حولها، ويهجرون منازلهم للإقامة في ذلك المكان الذي إتخذته الغانية الساحرة مقرًا لها، ومرتعًا لعشاقها.

وفي ذات يوم، مر ببلدة النزلة رجل معروف بالصلاح والتقوى، يقضي أيامه متنقلًا بين واحات الصحراء وقراها ومضاربها، ويعتمد في كسب رزقه على كرم الضيافة وعطاء المحسنين.

الناس يعرفونه بإسم «بو جملين» لأنه يركب جملًا ويقود آخر محملًا بزاده ومتاعه.

لم يستضفه أحد من سكان البلدة في ذلك اليوم، ولم يفتح في وجهه باب، ولم تمتد إليه يد بإحسان. فواصل الرجل السير ولما إبتعد عن المنازل كان الليل قد أقبل، تطرقت أذنيه أصوات ترتفع بالغناء والصياح، فمشى في إتجاه مصدرها، وإذا به يصل إلى الخيمة التي كانت «توكرت» في تلك الليلة تقيم فيها حفلة صاخبة، ظنها الرجل في بادئ الأمر عرسًا تزف فيه إحدى حسان البلدة إلى وزجها.

دعي إلى الدخول فدخل. وهبت الغانية ترحب بالغريب واخذته من يده وأجلسته في مكان الصدارة. فأكل وشرب وقضى الليل في ضيافة «توكرت» وأصحابها، وفي صباح اليوم التالي، رفع بوجملين يديه إلى السماء داعيًا للمراة بطول العمر، وقال وهو يودعها: «لقد فهمت حقيقة أمرك مما رأيته وسمعته في هذا المكان. فأطلب من الله أن يهديك سواء

السبيل، ويحول خيمتك هذه إلى دار عامرة، والخيام التي تحيط بها إلى منازل غاصة بالأسر السعيدة، مكافأة لك على حسن ضيافتك..

وأن يخلي من سكانها تلك البيوت التي تعد المسافرين وتغلق أبوابها في وجوه الغرباء.. وأن يجعلك تموتين ميتة الصالحين!»

وإبتعد الرجل التقي الورع بجمليه، وإختفى في طيات الصحراء! وإستجاب الله لدعائه!

فلم تمر أشهر على ذلك الحادث، حتى وصل إلى النزلة حاج مغربي في طريقه للمرة الثانية إلى أرض الحجاز المقدسة، فسمع بقصة المراة الضالة وزيارة بوجملين ودعائه، وعلم أن توكرت بدأت تغير سيرتها، وتلتمس طريق الصلاح، وتبذل المال للفقراء بلا حساب، وتدعو عشاقها الكثيرين إلى تشييد المنازل محل الخيام، والإنصراف شيئًا فشيئًا عن حياة اللهو والعربدة!

وقال الحاج المغربي محمد بن يحيى: «لن أواصل السير إلى الحجاز، بل سأبقي هنا، لآخذ بيد الغانية في سبيل توبتها، وأصلي إلى الله لكى يهدي الضالين جميعًا، ويرعى يعين عنايته هذه البلدة الصغيرة الجميلة»!

وتمت بقية المعجزة على يد الحاج محمد بن يحيى المغربي!

تابت «توكرت البهجة» إلى الله توبة كاملة. وأصلح العشاق سيرتهم. ووضعت الغانية التائبة أموالها وحليها وتقودها تحت تصرف الرجل الصالح الثاني، بعد أن أصغت إلى نصائح الرجل الصالح الأول. فأنفق محمد بن يحيى ثروة المرأة في سبيل الخير، وشيد بين المنازل

مسجدًا، وبجوار المسجد مضيفة، وإلى جانب المضيفة مدرسة...

وتحولت حياة اللهو في البلدة الجديدة عن مجراها السابق، وتغيرت معالمها، وقرر عشاق «غادة الوادي» أن يطلقوا إسمها على البلدة التي أنشئوها مكان خيامهم خارج نطاق النزلة. ومنذ ذلك الوقت. بدأت النزلة تخلو من سكانها، وعرفت البلدة الجديدة بإسم «توكرت» وأصبحت مع الزمن جديرة بأن توصف، كما كانت توصف الغانية التي أعطتها إسمه ، بأنها: «غادة وادي الريغ!»

أدى محمد بن يحيى رسالته على أحسن وجه. ولما وافاه الأجل، أسلم الروح قرير العين، بعد أن رأى المرأة التي تولى إصلاح سيرتها، وقد تخلصت من الرزائل والعيوب، تتحلى بأحسن الصفات وأجمل الفضائل.

وشيد له سكان البلدة الجديدة ضريحًا تعلوه قبة، لا يزال إلى الآن يعرف، في توكرت بوادي الريغ، بإسم مقام «المرابط سيدي محمد إبن يحيى» وإليه يحج طلاب البركة من جوانب الصحراء.

ولحقت توكرت بالرجل الذي أخذ بيدها إلى طريق الهداية –بعد وفاته بقليل– تاركة خلفها ذكرى معطرة مكرمة، وبلدة تحمل إسمها، قدر لها أن تصبح، فيما بعد مدينة كبيرة، وأن تتمتع بالإزدهار والرخاء..

ومرت أعوام... ثم تلتها أعوام...

ونزل بوادي الريغ قحط شديد، وعجز ولاة الأمر في توكرت عن إبعاد شبح الفاقة والجوع عن مدينتهم، وعن غيرها من واحات الوادي،

وظنوا أن نهايتهم قد أقبلت، وراحوا يتضرعون إلى الله لينقذهم مما هم فيه من بؤس وشقاء...

وذكروا مرور بوجملين في بلدتهم، وتوبة الغانية التي إهتدت وإهتدى معها الضالون جميعًا، و بقاء سيدي محمد بن يحيى بين ظهرانيهم ودفنه في توكرت...

وساق الله إليهم، مرة أخرى، من يأخذ بناصرهم ويعيد إلى أجسامهم الصحة وإلى نفوسهم الطمأنينة..

وكان المنقذ في هذه المرة هو «سليمان المريني»، وهو أيضًا من أبناء المغرب... كان عائدًا من الحجاز في قافلة لا نهاية لها، تحمل الأموال والأرزاق والسلع العديدة، ويحرسها عشرات من الخدم والعبيد.

وصل المريني إلى مدينة توكرت، فهاله ما شاهده فيها من بؤس، وما يعانيه سكانها من حرمان، فقرر أن يبقى فيها، وأن يساعدها على النهوض من كبوتها.

ولكنه أراد، في الوقت نفسه، أن يلقي على الناس درسًا، بعد ما علمه من أنهم أساءوا التصرف في تدبير أمورهم في عهد الرخاء، فلما قلب لهم الدهر ظهر المجن، لم يستطيعوا دفع الكارثة عن أنفسهم، ويواجهوا العاصفة ويخرجوا منها سالمين.

عرض على السكان أمواله، في مقابل ما يتنازلون عنه من حلى ومنقولات وممتلكات. فباع السكان ما يملكون، ثم باعوا نساءهم وأطفالهم ورهنوا عند الرجل حريتهم!.

وشيد المريني في وسط المدينة مسجدًا كبيرًا، ويوم أداء الصلاة فيه للمرة الأولى، وقف المغربي خطيبًا في القوم فقال لهم: «ليكن ما حدث في مدينتكم وكرامتكم درسًا لكم وعبرة. أما الآن، فإنني أعتق العبيد وأعيد إلى الجميع حريتهم وكرامتهم، وكل ما أخذته منكم بثمنه حلالًا. وتعالوا نعمل معا يدًا واحدة لكي تسترجع هذه المدينة سابق عزها وبهجتها!».

وإرتفعت أصوات السكان بالهتاف والدعاء لسليمان المريني، الكريم النبيل، وبمبايعته أميرًا على توكرت وملحقاتها في وادي الريغ.

وكان الناس قد سموه من قبل «الجلابي»، بإعتبار أنه جلب لهم الخير بوصوله مع قافلته الكبيرة الى مدينتهم خلال محنتها.

قبل سليمان المبايعة، فكان أول أمير من الأسرة المعروفة بإسم «الجلابة» أو «بني جلاب» والتي حكمت وادي الريغ مدة طويلة، وحمل بعض أمرائها لقب «سلطان» وتحالفوا مع القبائل المجاورة أو إشتبكوا معها في حروب دامية، لكي يحالفوها من جديد ويتكاتفوا معها لمقاومة الحملات العسكرية التي أرسلها حكام السواحل التابعون للدولة العثمانية لإخضاع سكان الصحراء أو سلب أموالهم ومنتجات أرضهم.

مرت بسلطنة توكرت ووادي الريغ، خلال ثلاثة قرون، عهود نيرة وأخرى مظلمة، عهود عم فيها الرخاء وأخرى خيم فيها البؤس، وأيام سلم وأيام حرب، ولكن عدد السكان ظل يزداد عامًا بعد عام كما طلت مساحة الواحات تأخذ في الإتساع تمشيًا مع إزدياد عدد السكان. وإمتدت غابات النخيل إلى مسافات بعيدة وأوقفت طغيان الرمال على

المساكن، وساعدت في نمو المراعي وتوفير الغذاء لقطعان الماشية..

وفي القرن التاسع عشر الميلادي، أقدم الفرنسيون على غزو الجزائر، فأرسل سكان وادي الريغ متطوعين منهم للإسهام في الدفاع تحت راية أمير المجاهدين عبد القادر بن محيي الدين الجزائري. ودوخ مجاهدو توكرت الفرنسيين...

وفي سنة ١٨٥٤ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٧٠ هجرية –سقط الوادي الخصيب في قبضة الغزاة الأغراب. ولكن مدينة توكرت ظلت شوكة في جنوبهم. وأسهمت في الدورات المتوايية التي كانت أرض الجزائر ميدان لها...

قبة سيدي الشيخ

أقســمت آن تنــتقم لوطنها..فضــحت
بقلبهــا علــى أرض المعركــة..تحت قبــة
سيدي الشيخ.

عشرون سنة قضاها القوم في قتال الغزاة الفاتحين. لم يهدأ لهم بال، لم يفتر لهم عزم، لم يتسرب الوهن إلى نفوسهم، لم يخدعهم موعد ولم يرهبهم وعيد. خلال تلك السنوات العشرين التي سطا فيها الموت على شيوخهم، وسقط فيها الكهول في حومة الوغى والسلاح بأيديهم، فحل محلهم الشبان، لكي يحل الأحداث فيما بعد محل الشبان.

عشرون سنة قضاها الرجال المنتمون إلى «قبائل أولاد سيدي الشيخ» على متون الخيل وظهور الجمال.

كانت ثورة «أولاد سيدي الشيخ» أطول ثورة نشبت على أرض الجزائر، ضد الفرنسيين المعتدين، منذ أن نزلت جيوشهم في خليج سيدي فرج، في سنة ١٨٣٠، إلى أن إنتهى حكمهم في عام ١٩٦٢، بعد ثورة إستمرت سبعة أعوام ونصف عام.

في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة، الموافق للقرن السابع عشر للميلاد توفي «سي عبد القادر الشيخ» إلتقى الورع، ودفن في بلدة

الأبيض، على النهر المعروف بهذا الإسم في جنوب وهران، وشيدت على قبره قبة، وأنشئت حوله زاوية، وعرف المكان منذ ذلك الوقت بإسم «الأبيض سيدي الشيخ» وأصبح مزارًا يحج إليه الناس من جميع أنحاء الجزائر.. ومن تونس والمغرب.

هاجم الفرنسيون الجزائر. وتمكنوا من تثبيت أقدامهم على الساحل. وشرعوا في الإتجاه إلى الداخل. فتصدى لهم الأمير عبد القادر بن محيي الدين في سنة ١٨٣٢، وإنطوت القبائل تحت لوائه، فسار بها من معركة إلى معركة، وظل القتال مستمرًا بقيادته خمسة عشر سنة كاملة.

وأخذ أولاد سيدي الشيخ نصيبهم من الجهاد، فإلتحق منهم مئات بقوات الأمير البطل. ولجأ عبد القادر إلى ربوعهم أكثر من مرة، ليعيد تنظيم جيشه، ويعاود الكرة على الأعداء.

وتجمع أولاد سيدي الشيخ في جنوب إقليم وهران، وإستقر زعماؤهم في بلدة الأبيض سيدي الشيخ حيث القبة والمزار.

وفي مساء يوم من أيام الشتاء سنة ١٢٧٦ هجرية -١٨٦٠ للميلاد- داخل دار صغيرة في ظاهر البلدة، دار حديث مثير بين فتاة في نهاية العقد الثاني من العمر، وشابين أكبر منها بقليل.

قصت حليمة بنت سي إبراهيم علي إبني عمها، حسن بن سي عمر وقاسم بن سي عمر، ما حدث لها في مدينة وهران، مما حملها على الهرب والإلتحاق ببني قومها في مقرهم المنعزل.

كان أبوها سي إبراهيم المعروف بالعنابي على خلاف مع أسرته وأقام في وهران حيث تزوج إمراة فرنسية أنجبت له إبنه عبد السلام وإبنته حليمة. ولم يكن هذا النوع من الزواج قد تفشي بعد في الجزائر. وفي الوقت الذي كان فيه الجفاء يستحكم بين سي إبراهيم وأفراد أسرته، كان الفرنسيون يحاولون بشتى الوسائل أن يستميلوه إليهم، ليستعينوا به في تهدئة النفوس الثائرة عليهم. وكانوا يعتقدون أنه بوسعهم أن يؤثروا عليه بواسطة زوجته الفرنسية «كليمانتين يورجوا».

ولكن الرجل الذي وهب قلبه لإمراة فرنسية لم يبع نفسه لقومها، ولم يسخر ضميره لخدمتهم، وقد رفضت الزوجة من جهتها أن تكون أداة طيعة في أيدي الذين ارادوا أن يستغلوا زواجها، بأن تدفع بالرجل الذي إصطفاها رفيقة حياته، في طريق الضلال.

وحدثت ذات يوم فتنة في وهران –وكانت الفتن متتابعة متوالية– فإحتمى ثلاثة شبان كان الجنود يطاردونهم في بيت إبراهيم العنابي، وإقتحم الجنود البيت، فدافع صاحبه عن الشبان الذين إستجاروا به، ورفض أن يسلمهم لمطارييهم. وتضامنت معه أسرته، عملًا بالتقاليد المتوارثة عند العرب. ولم يشذ مسلك الزوجة الفرنسية من مسلك زوجها وإبنه وإبنته. فدارت في داخل البيت معركة إستشهد فيها الشبان الثلاثة وأفراد الأسرة، وتمكنت حليمة وحدها من النجاة، ولكن بعد أن قتلت بيدها واحدًا من الضابطين اللذين قادا حملة المطاردة، كما قتل رفاقها، قبل إستشهادهم خمسة من الجنود.

والضابطان هما الأخوان جان وجاك فرديه. قتلت حليمة الأول.

وحاول الثاني اللحاق بها ولكنها أفلتت منه، وتوارت في أزقة المدينة، ثم إبتعدت متجهة إلى القوم الذين تنتمي إليهم أسرتها، أولاد سيدي الشيخ.

روت حليمة على مسامع إبني عمها، حسن وقاسم تفاصيل ذلك الحادث الدموي، وكيف أنها علمت، قبل الرحيل عن وهران، إن جاك فرد به وجنوده حملوا جثث القتل من رفاقهم، ثم أضرموا النار في بيت سي إبراهيم العنابي فأتت عليه، وتحول إلى قبر للشهداء العرب الذين إلتهم الأتون المتأجج جنتهم.

– والآن يا حسن، والآن يا قاسم، جئت إليكما يتيمة وحيدة، فأنتما سندي الباقي في هذا العالم. وقد أقسمت، وأنا في طريقي إليكما، أن أقف حياتي للأخذ بثأر الأعزاء الذين قتلهم أولئك الأغراب أمام عيني، أبي الذي كان على خلاف معكما ومع قومنا، وأمي الفرنسية التي كنتم جميعا تكرهونها لإعتقادهم أنها غررت بأبي، وقد أثبتت أنها كانت وفية للأسرة التي أصبحت عضوًا فيها، وأخي التوأم الذي قتل إثنين من المعتدين، والمواطنون الثلاثة الذين إستجاروا بنا فحميناهم وأفنيت أسرتنا في سبيلهم فهل تقران ما صنعت، وهل تقسمان معى على الأخذ بالثأر؟

فأجاب الشبان معًا، وبكلمة واحدة: «نعم!».

وإحتضن كل منهما إبنة عمه حليمة، ثم تشابكت أيدي الثلاثة، وإنبعثت من بين شفاههم عبارات القسم الذي قطعوه على أنفسهم بالعمل معًا، وهو القسم الذي إرتبطت به حليمة بنت سي إبراهيم، وهي في طريقها إلى قبة سيدي الشيخ، في بلدة الأبيض.

وفي الوقت نفسه، هناك، في وهران، كان الضابط جاك فرديه، أخو الضابط جان فرديه يقسم من ناحيته بألا يعود إلى بلاده قبل أن يعثر على الفتاة التي قتلت أخاه بيدها، فيقتلها بيده.

لم يطل إنتظار حليمة في البلدة التي آوت إليها بعد المحنة التي حلت بها. فقد شاءت الأقدار أن تتيح للفتاة فرصة العمل في سبيل ثأرها، في العام التالي لوصولها إلى المزار الذي كان بنو قومها يحجون إليه، ويعقدون حوله حلقاتهم، ويعدون فيه العدة لثورتهم الكبرى.

في جنوب وهران، داهم أولاد سيدي الشيخ قافلة فرنسية محملة بالأرزاق والأسلحة في صيف سنة ١٨٦٢ ميلادية، الموافقة لسنة ١٢٧٨ للهجرة، ففتكوا بها، وإستولوا على حمولتها، وكان يقودهم في تلك الغزوة حسن بن سي عمر، وقاسم بن سي عمر، ومعهما حليمة الفتاة الناقمة الغاضبة. وفي تلك المعركة الصغيرة، قتلت حليمة الضابط الفرنسي الذي كان يقود القافلة، وقالت بعد أن عاد رفاقها إلى قاعدتهم منتصرين:

– هذا واحد.. وبقي أن أقتل خمسة آخرين من الضباط، واحدًا مقابل كل قتيل من الشهداء الستة الذين سقطوا في بيت أبي بوهران... فإن الجنود الذين يقتلون بيدي أو بيدي غيري من بني قومي، لا يحسب لهم حساب. والضباط وحدهم هم الذين يحسب لهم حساب...

وهمس إبن عمها حسن في أذنها:

– يا حليمة.. لقد كاشفتك بحبي على أثر عودتك إلى حمى

القبيلة، بعد مأساة وهران، أفلا ترضين بأن تصبحي زوجة لي الآن، وقد تم لك من الثأر الذي تسعين إليه جزء واحد من ستة أجزاء.

وأجابت حليمة:

– أما أجبتك يا إبن عمي، يوم كاشفتني بحبك، بأن همي الوحيد منصرف الآن إلى تحقيق ذلك الثأر الذي أنشده، وإن هذا أيضًا يجب أن يكون همك أنت... وإن حبنا، إذا تكلل بالزواج بعد الثأر للشهداء، يكون مفعمًا بالسعادة والهناء، أكثر منه لو تزوجنا الآن، وإنصرفنا إلى الإهتمام بحبنا، وأهملنا الواجب الذي إرتبطنا به بالقسم المشترك!!

وجدت حليمة نفسها في أزمة عاطفية جارفة. إن إبن عمها الأكبر حسن بن سي عمر، يحبها حبًا عنيفًا. وهي تشعر، بسليقة الأنثى، أن عاطفة خفية تختلج أيضًا صدر إبن عمها الأصغر، قاسم إبن سي عمر، فيحاول كتمانها، لأنه لا يريد أن تقوم بينه وبين أخيه منافسة على فتاة واحدة، هي إبنة عم الإتنين معًا. وأدركت حليمة أن الوسيلة الوحيدة لصرف الأخوين من التناحر من أجلها، هي أن تدفعهما في طريق الجهاد، من أجل الوطن الجزائري من ناحية، ومن أجل ثأرها المقدس، من ناحية أخرى.

وفي سنة ١٨٦٤ ميلادية، الموافقة لسنة ١٢٨٠ للهجرة، زحفت على قبائل سيدي الشيخ قوة فرنسية يقودها الكولونيل بوبريتر. فهاجمها فرسان سيدي الشيخ بقيادة سي سليمان، وأفنوها عن آخرها في عين بوبكر، وسقط قائدها نفسه قتيلًا في حومة المعركة، وكان الإخوان حسن وقاسم ومعهما حليمة في صفوف المهاجمين، وتم لحليمة أن تحقق

بعض ثأرها، فقتلت بيدها واحدًا من ضباط الحملة، ولكن إبن عمها الأكبر العاشق، أصيب بجرح مميت لم يقدر له الشفاء منه، ففاضت روحه في ميدان القتال، بعد هزيمة الفرنسيين، وكانت كلماته الأخيرة لأخيه وإبنة عمه:

– إنك تعرف يا قاسم إنني أحب حليمة. فهي بعد الآن أمانة بين يديك، ولتكن زوجة لك، بعد أن تصبح في حل من قسمها!

وعاكست الأقدار العاشقين.

ظلا يشتركان في المعارك، ويقاتلان بشجاعة وإقدام، ولكن الحظ خان الفتاة المجاهدة فتوقف عدد ضحاياها عند الأربعة الذين فتكت بهم.

وفي سنة ١٨٧١ للميلاد الموافقة لسنة ١٢٨٧ للهجرة، تضامن الثائرون من أولاد سيدي الشيخ مع الثائر المقراني، وفي معركة دارت رحاها في غرب وهران، قتلت حليمة ضابطها الخامس وبقى عليها مرحلة واحدة للبر بقسمها كاملًا!

وعاد الحظ يعاكسها...

أعوام أخرى إنقضت، والشاب والفتاة يعملان للهدف المشترك الذي يسعيان إليه...

وأولاد سيدي الشيخ يواصلون صراعهم الرهيب، ضد قوات متزايدة، وأسلحة فاتكة، وعناد يتسم به العدو الذي كانت الإمدادات تصل إليه تباعًا من فرنسا.

صبر قاسم، وصبرت حليمة، عشر سنوات أخرى.

وفي سنة ١٨٨١ للميلاد، الموافقة لسنة ١٢٩٨ للهجرة، وقعت معركة بين الثائرين وحملة فرنسية فإستشهد فيها قاسم بن سي عمر، قبل أن يتحقق الحلم العاطفي الذي عاش له، وبقيت حليمة وحيدة في الدنيا، بعد أن فقدت ذويها جميعًا.

وبعد أسابيع من المعركة، زحفت قوة فرنسية كبيرة، بقيادة الكولونيل نيجريه، على بلدة الأبيض.

وتجمع أولاد سيدي الشيخ للدفاع عن عرينهم. ونزلت حليمة إلى الميدان مع المجاهدين من بني قومها.

وفي حومة المعركة، وجدت الفتاة نفسها وجها لوجه مع الغريم الذي بحثت عنه، وبحث عنها، خلال السنوات العشرين التي إنقضت على مأساة وهران.

ذلك الغريم هو الضابط جاك فرديه أخو الضابط جان فرديه. إذن، سيكون معي السادس. كان يقاتل والسيف بيده. وكانت حليمة تقاتل بخنجر أهداه إليها إبن عمها قاسم وهو يسلم الروح بين يديها..

ألقت الفتاة الخنجر من يدها وصاحت صيحة مدوية، ووثبت على الرجل الذي عرفته وعرفها، فبادرها بضربة من سيفه، وتعلقت الفتاة به، وأنشبت أظافرها في عنقه، ودار بين الإثنين صراع رهيب، وسط الدخان المتصاعد من الحرائق. فقد أمر الكولونيل نيجريه بأن تضرم النار في

زاوية سيدي الشيخ وقبتها والدور المحيطة بها، ظنًا منه أنه يقتل روح المقاومة في نفوس القوم، بتدمير قاعدتهم، وتخريب المزار الذي يرقد في ترابه جدهم الأعلى.

وهمدت النيران. وإبتعد المعتدون عن ذلك المكان المقدس الذي دنسوه وأحرقوه، حاملين معهم القتلى والجرمي من رجالهم.

وبين الجثث، عثروا على جثة الضابط جاك فرديه، وبجانبها جثة إمراة يتدفق الدم من جرح بليغ في صدرها، وقد أطبقت بيدها على عنق الضابط فأزهقت روحه...

ماتت حليمة بنت إبراهيم العنابي بعد أن تم لها ثأرها وبرت بقسمها. ولكنها لم تنعم بالحب الذي آثرت عليه القتال والجهاد، في سبيل وطنها وفي سبيل قومها!

وبعد ثورة أولاد سيدي الشيخ، التي إستمرت عشرين عامًا إنتهت في تلك السنة، أعيد بناء الضريح، وتشييد المزار، وإرتفعت في الفضاء من جديد «قبة سيدي الشيخ» في بلدة الأبيض..

البطل الضرير

فقد حامل العلم عينيه، فتلقت العلم منه زوجته، وفقدت ذراعها اليمني فرفعته باليسرى!

بعد أداء صلاة الفجر، وقد بدأ الليل يرفع رواقه عن دمشق الفيحاء، وأسواقها الضيقة، وبيوتها الهادئة، وغوطتها الخضراء، أخذ الأمير عبد القادر بن محيي الدين الجزائري مجلسه في صدر القاعة الفسيحة، وحوله أفراد أسرته الكبيرة، في ذلك الصباح البهيج، صباح عيد الأضحى المبارك، لسنة ١٢٨٠ هجرية، الموافقة لسنة ١٨٦٣ للميلاد.

كان البطل الخالد، الذي إختار المدينة الخالدة مقرًا له ومنفى، شديد الحرص على الإحتفال بالأعياد كلها، إحتفالًا جديرًا بمعانيها السامية. فيها يلتئم شمل الأسرة، ويجتمع رفاق الأمير الذين هاجروا معه حول عميدهم، فتنحر الذبائح وتوزع الصدقات، وترسل الهدايا، على نفس المجاهدين الذين إستشهدوا في المعارك، هناك، في جبال الجزائر ووهادها وبواديها، خلال الحروب التي خاضوا غمارها ضد الغزاة الفرنسيين.

في تلك المواسم، كانت الذكريات تتزاحم –ذهن الرجل الذي قاد أولئك المجاهدين في ساحات الشرف، والمشاعر المتباينة لتلاطم في

صدره، فيروي من الذكريات ما يلائم المقام، ولا يقوى دائمًا على كظم المشاعر، فتعبر عنها دمعة تنفر من عينه، وتنساب على خده!

ما أن أطلت شمس ذلك اليوم، وجعلته خيوطها تداعب المدينة المبكرة في صحوها، حتى توافد الناس على الدار الرحبة، المسيحي منهم يسابق المسلم، والفني يصطحب الفقير، والأبناء يرافقون آباءهم، وقد جاءوا مسلمين مهنئين جريًا على العادة التي إتبعها الدمشقيون، منذ اليوم الذي حل فيه الجزائريون بين ظهرانيهم «فأطلقوا على المكان الذي نزلوا فيه إسم «حي المغاربة» كما كانوا يسمونهم.

طاف الخدم على الزائرين بأكواب الشربات وأطباق الحلوى، وراح أفراد الأسرة يتنقلون بينهم مستقبلين مرحبين، وإنطلقت الأسئلة من الأفواه، موجهة إلى رب الدار، وبعضها مكرر للمرة العاشرة أو أكثر. والأمير يرد عليها كلها، ببشاشة وفصاحة ولباقة.

وفجأة، إرتفعت في الخارج جلبة، وإقتربت من القاعة، ورن في آذان الحاضرين صوت نسائي متهدج يقول بلهجة مغربية واضحة «هذه هي اللحظة التي نسعى إليها منذ سنتين!»

وتلفتت الأنظار إلى الباب، وقد ظهرت فيه إمرأة فارعة القامة، تقود رجلًا فارع القامة مثلها، أدرك الناظرون إليه في الحال، إنه ضرير فقدت عيناه النور، وإن المرأة التي معه تسنده بيدها اليسرى، وإن ذراعها اليمنى مقطوعة من جذرها!

تقدم الإثنان وقد طفح وجهاهما بالبشر والغبطة، فإخترقا القاعة بطولها، ووصلا إلى حيث الأمير متربع على الوسائد، وأكبا على يديه يغمرانهما بالقبلات ويبللانهما بالدموع، والحاضرون يتبعونهما بأنظار تنم عن الدهشة والفضول.

ثم شخصت الأبصار إلى عبد القادر...

وسمع صوته خافتا وهو يتمتم إسمين ويكررهما: «إبراهيم!.. فاطمة!... إبراهيم!.. فاطمة!.»

ساد الصمت بضع دقائق...

وإرتفع صوت الأمير مرة أخرى، سائلًا:

– من أين أنتما قادمان؟

وأجابت المرأة:

– من تونس يا مولاي...

– وكيف وصلتما هنا؟

– مشيًا على الأقدام!

– ومن دلكما على الطريق إلي؟

– الناس في كل مكان يعرفون مقرك.

ومن كل مكان حملونا إليك أطيب التحيات!

– متى تركتما تونس؟

– خرجنا من مدينة قابس منذ سنتين. وقطعنا البر كله، في محاذاة الشاطئ، فمررنا بطرابلس، وبرقة، وبر مصر، وبلغنا جبال لبنان، ومنها هبطنا إلى الشام للقائك فيها.

ومسحت المرأة دموعها، وإرتسمت على شفتيها إبتسامة عبرت عن فرحها وسعادتها، ثم قالت بصوت جهوري:

– والآن، لا يبقى علينا إلا أن نستقبل الموت، نقد تحققت الأمنية الوحيدة التي عشنا من أجلها، منذ خروجنا من الوطن الجريح!

في تلك الجلسة، بدار الأمير عبد القادر الجزائري، بدمشق الفيحاء، عرف الدمشقيون قصة البطولة، التي أفقدت فيها ذلك الرجل نور عينيه، وأفقدت زوجته ذراعها اليمنى.

روى القصة بطلها، وساعدته في الرواية بطلتها، وكان عبد القادر من وقت إلى آخر، يفسر العبارات والكلمات المغربية، التي تجيء على لسان الراوي أو الراوية، ويتعذر على السامعين فهمها.

كان ذلك في سنة ١٢٦١ هجرية، الموافقة لسنة ١٨٤٥ للميلاد.

تدفقت الجيوش الفرنسية الجرارة على الجزائر خلال الأعوام السابقة، وقاومها المجاهدون الجزائريون بقيادة الأمير عبد القادر خمس عشرة سنة كاملة.

كان النصر ينتقل من صف إلى صف، ومن جهة إلى أخرى.

في تلك السنة، تراجع المجاهدون أمام كثرة العدد ووفرة العدة،

وإتخذوا مواقع جديدة على الحدود، بين الجزائر والمغرب، وراحوا من هناك يشنون هجومًا بعد آخر على تجمعات الغزاة، المعتدين، ويلحقون بهم الخسائر بالأرواح والعتاد، ويغنمون منهم الأسلحة ليواصلوا بها قتالهم...

وفي شهر سبتمبر من سنة ١٨٤٥، حشد الفرنسيون قوة ضاربة في بلدة «سيدي إبراهيم» التي تعرف بهذا الإسم نسبة إلى القبة التي تعلو ضريح المرابط سيدي إبراهيم، وهو من أولياء الله الصالحين، جاء إلى الجزائر من الأندلس، وأنشأ في ذلك المكان زاوية كان يلقي فيها دروسه الدينية، فتحولت بعد موته إلى ضريح يضم رفاته، ويتبرك الناس بزيارته.

عول المجاهدون على إسترجاع ذلك الموقع المقدس من غاصبيه، فزحف عبد القادر على رأس قوة من رجال القبائل، وإحتل مرتفعات جبل كركور، على مقربة من بلدة سيدي إبراهيم.

وإلتحقت النساء بالرجال، لأخذ نصيبهن من الجهاد، فإختلطت زغاريدهن بأهازيج الحرب.

أدرك العدو الخطر المقترب منه، وقرر أن يتفاداه قبل أن يحدق به، فتحركت قوة فرنسية نحو المرتفعات التي إعتصم فيها الجزائريون.

وفجأة إنحدر الجزائريون صوب هذه القوة من سفوح الجبل، وبأيديهم السيوف والبنادق. فإلتحم الفريقان في قتال مرير، وسالت الدماء غزيرة وإرتفع الصياح عاليًا. وفي بدء المعركة، سقط مقاتل كان يحمل علم الأمير عبد القادر في مقدمة الصفوف، فإلتقط العلم منه

واحد من رفاقه، وإذا بطلق ناري يصيبه في إحدى عينيه، وطلق آخر يصيبه في العين الثانية، فيهوى على الأرض ويهوى العلم معه، فتثب إمرأة كانت تسير معه جنباً إلى جنب، وتأخذ العلم فيرفرف مرة أخرى، فيبادرها ضابط فرنسي بضربة سيف مزقت ذراعها اليمنى، لكنها ظلت ممسكة بالعلم بالذراع اليسرى، ودفع الضابط حياته ثمناً لضربته الصائبة، فقد وجه إليه مقاتل جزائري ضربة صائبة مثلها أردته قتيلاً!

حدث ذلك حول العلم في دقائق معدودة، وسط الهدير والضجيج، وأحاط رفاق المرأة والرجل بهما، وأنتحوا بالجريحين ناحية أمينة، بينما القتال يأخذ مجراه نحو نصر كلل في ذلك اليوم المشهود شجاعة المجاهدين!

وقعت معركة جبل كركور في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٨٤٥ ميلادية –١٢٦١ هجرية– وعند ظهر ذلك اليوم، وصل جندي إلى موقع الفرنسيين في سيدي إبراهيم، وقال وهو يلهث: «ماتوا جميعا... وأنتهى كل شيء!» ووقع على الأرض يلفظ أنفاسه الأخيرة؟

فقد أفنى المجاهدون الجزائريون القوة الزاحفة عليهم عن آخرها!

وزحفوا بدورهم نحو سيدي إبراهيم!

ضربوا الحصار على القوة الفرنسية المعتصمة فيها، وأنقضت ثلاثة ايام بين هجوم ودفاع، فحاول الفرنسيون إقتحام الحصار وفكه، ليتجنبوا الهزيمة، وكان مصيرهم كمصير رفاقهم في جبل كركور: الفناء التام!

تلك المعركة المزدوجة، التي أحرز فيها عبد القادر الجزائري ورجال القبائل نصرًا مزدوجًا، عرفت في تاريخ الجزائر بمعركة «سيدي إبراهيم» ففيها هلكت حملتان عسكريتان، بجنودهما وضباطهما، وكان قائد الحملتين، الكولونيل مونتانياك، بين قتلى جبل كركور.

أما الرجل الذي ألتقط العلم من حامله القتيل، والذي فقد في سبيله عينيه، فإسمه «إبراهيم الإبراهيمي» وهو من سكان البلدة ومن حراس الزاوية. وقد أطلق عليه أسم «إبراهيم» تبركًا بصاحب الضريح، وكنية «الأبراهيمي» نسبة إلى البلدة التي يقيم فيها.

وأما المرأة التي أخذت منه العلم بعد إصابته، وفقدت في سبيله ذراعها اليمنى، فهي زوجته «فاطمة».

وهما اللذان لحقا بالأمير عبد القادر الجزائري بعد ثمانية عشر عامًا من ذلك الحادث الرائع. وألتقيا به في مقره بمدينة دمشق!

خان الحظ عبد القادر، فكف عن مواصلة القتال، تاركًا هذه المهمة لغيره في داخل الجزائر، سنة ١٢٦٤ هجرية، الموافقة لسنة ١٨٤٧ للميلاد، ومشى إلى الأسر ثم ذهب إلى المنفى على ضفاف البوسفور.

وخرج من الجزائر فريق من رفاقه في الجهاد، وكان إبراهيم الإبراهيمي وزوجته فاطمة بين الذين رحلوا إلى تونس.

كان الرجل في نحو الخمسين من العمر، وكانت المرأة في نحو الثلاثين.

قادت بعينيها البصيرتين خطواته المتعثرة، وعلى ذراعها اليسرى

أتكأت ذراعه اليمنى، في طريقه إلى المنفى الذي أختاره لنفسه ولزوجته.

وصلا إلى مدينة تونس. ومنها أنتقلا إلى مدينة قابس حيث وجدا بعض المواطنين من الجزائر. وقد رحلوا مثلهما عن البلد الذي أغتصبه الأغراب.

ومرت الاعوام تتلوها الأعوام، بطيئة، كئيبة، بعيدة عن البهجة ولكنها غير خالية من الأمل.

وأختلجت في صدر الزوج الضرير والزوجة الكتعاء أمنية أصبحت موضع إهتمامهما وموضوع تفكيرهما الدائم: أن تساعدهما الظروف للحاق بالبطل العظيم الذي حاربا تحت علمه، وذاقا نشوة النصر تحت قيادته.

كان عبد القادر قد أنتقل من فرنسا إلى بروصة، ولما خرب الزلزال هذه المدينة التركية في سنة ١٨٥٥ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٧١ هجرية قرر الذهاب إلى دمشق، وأتخذها مقرًا دائمًا له.

حمل الركبان إلى تونس خبر وصوله إلى المدينة السورية، فقرر إبراهيم الإبراهيمي وزوجته أن يستأنفا السير، بعد تلك الأعوام التي قضياها في قابس. وأن يحاولا اللحاق بالأمير في مقره الجديد.

ومشيا... مشيا غير عابئين بشيء!

الطريق طويل، ومخاطره كثيرة، والمشقة كبيرة، والرجل لا يبصر، والمرأة بذراع واحدة!

لكنهما تحملا المشقة، وتغلبا على المخاطر، وقطعا الطريق

الطويل، ووصلا في النهاية إلى المحجة التي كانا يقصدانها: دار الأمير الجزائري في دمشق!

ولما خطا الإثنان خطواتها الأخيرة، في نهاية الطريق، وعند باب القاعة التي جلس فيها عبد القادر يتلقى تهاني الدمشقيين بعيد الأضحى، تنفست فاطمة الصعداء، وأنبعثت من بين شفتيها تلك العبارة التي أثارت الدهشة والفضول: «هذه هي اللحظة التي تسعى إليها منذ سنتين!»

في ذلك اليوم، لم يقص عبد القادر بن محيي الدين ذكرياته على زائريه جريًا على عادته، بل أستمع معهم إلى إثنين من أبطال جبل كركور، وهما يرويان ذكرياتهما عن معركة سيدي إبراهيم.

وأضاف الدمشقيون حفنة جديدة من المعلومات، إلى ما كانوا يعرفونه عن حرب الجزائر!

وعبر عبد القادر عن إغتباطه بوصول البطل الضرير وزوجته الباسلة سالمين إلى دمشق. وقال لهما على مسمع من الحاضرين:

– أنتما الآن هنا في بيتكما، وبين أسرتكما. وأنه لمن محاسن الصدف أن ألتقي بكما بعد فراق طويل، في هذا اليوم السعيد، فيصبح العيد بالنسبة إلى عيدين!

وعاش إبراهيم الإبراهيمي وفاطمة في دمشق. في دار الأسرة الجزائرية. ومات الرجل في سنة ١٨٦٦، ولحقت به المرأة بعد ثلاثة أعوام، ودفنت بجواره.

وكان القتال لا يزال مستمرًا في داخل الجزائر، يهدأ حينًا ثم يستأنف، ولما توفي الأمير عبد القادر في سنة ١٨٨٣ ميلادية الموافقة لسنة ١٣٠٠ هجرية كانت الثورات القومية في الجزائر متواصلة، وظلت كذلك...

يمينة أميرة الصحراء

تركت مدينتها الزاخرة بأسباب التسلية،
ولحقت بالرجل الذي أحبها إلى بطن
الصحراء، حيث أشعة الشمس محرقة،
ورياح السموم تهب من كل صوب!

أن المسافر إلى مدينة الجزائر قاصدًا إلى الصحراء، سالكًا في سيره الطريق إلى مدينة الأغواط، يمر بقبة ضخمة عالية هي ضريح من أضرحة الأولياء ويسترعي نظره حول تلك القبة، عدد الزائرين والمصلين، الذين جاءوا من الحواضر والبوادي، للتبرك بذلك المقام الجليل.

وتزداد دهشته إذا ما أقترب من تلك القبة، وتطلع إلى تفاصيلها، لأنه يرى في أحد أركانها صليبًا – وما عهدنا أضرحة الأولياء المسلمين تحمل الصلبان بين جدرانها!

وإذا سأل المسافر أولئك الزائرين، لعلم منهم أن هذا أحد أضرحة آل التيجاني، وقد دفنت فيه الأميرة «يمينة» أميرة الصحراء.

وقد ينبئه أحدهم بمعنى وجود رسم الصليب في القبة، وقد لا يستطيع أحد منهم أن ينبئه بذلك… والواقع، أن «يمينة» إمرأة نصرانية، ولكنها كانت زوجة زعيم من زعماء البلاد المحبوبين، وولي من أوليائها

الصالحين، فلا غرابة في أن ترقد رقادها الأخير في ذلك الضريح العائلي، وأن يعلو الصليب قبرها ما دامت قد تركت في قلوب الناس أجمعين أثراً طيباً وذكرى خالدة!

من هي «يمينة» أميرة الصحراء.

في سنة ١٨٧١ ذاقت فرنسا مرارة الإنكسار وتجرعت كأس الهزيمة والذل حتى الثمالة. فإن الجيوش الألمانية طغت عليها، ونكلت بجيوشها في الميادين، ووطأت سنابك الخيول البروسية شوارع باريس، وفرضت ألمانيا على عدوتها القديمة شروطًا قاسية فأرغمتها على قبول الصلح كما أراده الإمبراطور غليوم الأول ووزيره بسمارك.

ورحلت دوائر الحكومة الفرنسية عن عاصمتها باريس، ولجأت إلى مدينة بوردو، وجعلت تنتظر هناك، في مأمن نسبي، عودة المياه إلى مجاريها، وجلاء الأعداء عن أرض الوطن.

وغصت مدينة بوردو باللاجئين إليها من كل فج وصوب. وكان بينهم أفراد أسرة معروفة، يشغل بعضهم وظائف حكومية رفيعة.

حلت الأسرة في أحد فنادق المدينة، ومعها فتاة تدعى «أوريلي بيكار» رافقت ربة البيت كوصيفة لها.

وأوريلى بيكار فتاة جميلة، أغدقت عليها الطبيعة نعمها بلا حساب، فلا غرابة إذن في أن تلفت تلك الغادة الحسناء أنظار الناس، وأن تنفذ سهام إلحاظها الفاتكة إلى أعماق القلوب.

وكان يقيم في بوردو، في ذلك الوقت، فريق من زعماء القبائل العربية في الجزائر، جاءوا إلى فرنسا في أثناء الحرب السبعينية، حاملين إلى ولاة الأمور تحية قبائلهم وولاء رجالهم، قائلين: إنهم لن يثوروا على فرنسا كما أشيع عنهم، وأن شمائلهم العربية الموروثة تمنعهم من إغتنام تلك الفرصة السانحة، وضرب فرنسا الضعيفة المهزومة من الوراء!.

وكان بين أولئك الزعماء رجل له عند قومه مكانة سامية وكلمة مسموعة، تردد الألسنة إسمه بإحترام وتدعو له بالعز والعمر الطويل، من الجزائر إلى تونس، ومن ساحل البحر إلى أطراف الصحراء.

ذلك الرجل هو «سي أحمد التيجاني» سليل أسرة نبيلة، أنجبت للجزائر أبطالًا وعلماء وأولياء، وحارب أبناؤها في صفوف الجزائريين من قديم الزمان، وأبلوا في الميادين بلاء حسنًا. وكان آخر عهدهم بالبطولة والفروسية، في أثناء المعارك التي خاضوا غمارها بجانب بطل الجزائر الخالد الأمير عبد القادر بن محيي الدين، ضد الفرنسيين أنفسهم!

حمل سي أحمد التجاني لولاة الأمور في بوردو الطمأنينة التي كانوا متعطشين إليها، وأقام مدة من الزمن في تلك المدينة الفرنسية، حيث أحاطه الناس بأنواع الإجلال والإكرام.

وشاءت الأقدار أن يقع نظره على الفتاة أوريلى بيكار، أبنة مقاطعة اللورين الهاربة إلى بوردو مع الهاربين!

وكان الزعيم العربي في عنفوان شبابه، وسرعان ما خفق قلبه بحب

تلك الغادة الهيفاء. فرغب فيها زوجة له. وعزم على إقتلاع ذلك الغصن الرطب من الدوحة الفرنسية. ونقله إلى مقره البعيد. في بطن الصحراء.

كاشف الفتاة بما كان يجول في خاطره وقال لها بلا مواربة ولا رياء:

إسمعي يا إبنتي. إنني أقيم في وسط الرمال. في بقعة بعيدة عن المدن ومساكن الناس. تتسلط عليها أشعة الشمس المحرقة. وتهب عليها رياح السموم من كل جانب. فلا شيء هناك مما يحيط بك هنا من أسباب الراحة والتسلية واللهو والمرح. ولكن الشعب الذي يخضع لي شعب شجاع شهم طيب القلب. وقد أحببتك. فهل ترغبين في اللحاق بي إلى هناك حيث تعيشين بين أبناء قومي تحت الخيام التي لا تستقر أطنابها في مكان؟

فكان الجواب كلمة واحدة.

– نعم!

غادر سي أحمد التيجاني أرض فرنسا، ومعه زوجته أوريلى بيكار!

وأقيمت في مدينة الجزائر. حفلة غريبة. لم تشهد البلاد مثلها. فقد مثل الزعيم الجزائري مع زوجته الفرنسية أمام «الكردينال دى لافيجري» ممثل الكنيسة الكاثوليكية في ذلك القطر العربي. وأقسم احمد التيجانى المسلم ألتقى الورع أمام الهيكل المسيحي بأن يحتفظ بزوجته مدى الحياة. وألا يتخذ لنفسه إمرأة سواها.!

وأقسمت أوريلى بيكار الفرنسية المسيحية بأن تكون لزوجها العربي المسلم طائعة مخلصة. وألا تعصي له أمراً في شأن من الشئون.

وعرفت أوريلي الجميلة كيف تكتسب القلوب وتتجنب بينها وبين أسرة زوجها كل إصطدام وخلاف، فأحبها الناس وأطلقوا عليها أسم «يمينة أميرة الصحراء».

وكانت المرأة جديرة حقًا بذلك اللقب الرفيع.

فقد أخلصت لزوجها إخلاصًا لا شائبة فيه، ووضعت مواهبها الكثيرة في خدمة القوم الذين ألتحقت بهم وأصبحت منهم. وعاشت في الجزائر نحو خمسين سنة كانت في خلالها مثال الفضيلة والأمانة والهمة والنشاط.

مات أحمد التجاني فأتخذها أخوه زوجة له. ولكن الأقدار أبت إلا أن تحترم المرأة من زوجها الثاني. وكان ذلك قبيل الحرب العظمى.

وفي سنة ١٩١٤، غادرت «يمينة أميرة الصحراء» مدينة الجزائر حيث كانت تقيم في ذلك الوقت، وأنطلقت من جديد إلى الصحراء، لدعوة القبائل إلى الإسراع لنجدة وطنها فرنسا.

فلبت القبائل دعوتها، وحملت البوارج الفرنسية من سواحل الجزائر إلى مرسيليا وطولون، كتائب الفرسان الجزائريين الذين ألتحقوا بالجيش الفرنسي إجابة لرغبة الأميرة المحبوبة! وللمرة الثانية، لم يغدر الجزائريون بفرنسا ولم يطعنوها من الخلف.

وعندما وضعت الحرب أوزارها كانت أوريلى بيكار أو يمينة. مقيمة عند أهلها في مقاطعة اللورين. بعد أن بقيت عشرات السنين بعيدة عن وطنها.

ولكن أخباراً مزعجة وردت عليها من الجزائر، فإن وفاة زوجيها أحمد وأخيه الواحد بعد الآخر أثارت خلافاً بين أفراد الأسرة. حول إختيار الزعيم الذي يحل محلهما.

كانت يمينة قد بلغت الثمانين من العمر ولكنها لم تتردد في الرحيل فركبت البحر من جديد عائدة إلى الصحراء.

وما أن وصلت إلى الأغواط، حتى ألتف حولها أفراد الأسرة، وتعهدوا بقبول الحل الذي تراه الأميرة الجميلة المحبوبة.

وبعد أن أعادت يمينة الصفاء إلى القلوب أغمضت عينيها للمرة الأخيرة، مرتاحة إلى النتيجة، سعيدة بما قامت به من أعمال في حياتها الطويلة.

ونقل جثمانها إلى ضريح الأسرة، حيث ترقد «يمينة أميرة الصحراء» المسيحية الفرنسية، زوجة أحمد التيجاني المسلم العربي جنباً إلى جنب مع أفراد الأسرة النبيلة الجليلة.

عائشة المغربية

سعت إلى ثأرين من العدو: الثأر لوطنها، والثأر لأبيها، فبلغت الهدف الذي سعت إليه!

قررت الحكومة الإسبانية إخضاع «الريف المغربي» من ساحله إلى أقصى جباله وسهوله، والضرب بيد أرادتها أن تكون من حديد، على ما بدا هنا وهنالك من حركات عصيان، وميول إلى التحرر من ربقة الإستعمار وذل الإحتلال، بين القبائل والعشائر، وأهل المدن وسكان القرى والمزارع.

وصدرت الأوامر من مدريد العاصمة، إلى القواد والحكام، بأن يكونوا تلك اليد الحديدية الضاربة، وبأن يبطشوا بأولئك العرب المسودين الذين تحدثهم النفس بالإنتفاض على سادتهم الأسبان.

وحشد الغاصبون جيشين لجبين، أحدهما بقيادة الجنرال بيرانجر، عهد إليه في تطويق المنطقة التي يتزعمها «الريسولي» ومحاولة إستمالته بالوعود والأموال، والثاني بقيادة الجنرال سلفسترو للزحف في داخل البلاد وتثبيت أقدام الإسبانيين فيها.

وجمع سلفسترو جموع قواته ومن أغرتهم الوعود والهبات الإسبانية من أبناء الريف، ووقف خطيبا فقال:

«بعد شهر واحد من هذا التاريخ، سنلتقي مرة أخرى في القرى المشرفة على البحر، ونشرب معًا أقداح الشاي الساخنة، عربون الصداقة والتعاون. وأعلموا أن الإسبانيين سيشربون تلك الأقداح، سواء أرضى العرب أن يشربوها معهم أم لا! وسوف تدين جميع البلاد لنا بالطاعة شئتم أم أبيتم!»

وكان الأمير عبد الكريم الخطابي في ذلك الوقت يطوف البوادى والحواضر، مستنهضًا همم الناس، داعيًا مواطنيه إلى السلاح لإنقاذ الريف من نير ثقيل لا ترضى به أعناق الأحرار الأباة من الرجال فبلغته أقوال القائد الإسباني المتعجرف، وأدرك أن ساعة العمل قد دنت!

وأنطلق رسله في جميع الأنحاء يحددون للمجاهدين موعدًا ومكانًا للقاء، وفي شهر يونيو ١٩٢١ للميلاد الموافقة لسنة ١٣٣٩ للهجرة. بدأت طلائع العرب المسلحين تفد من كل حدب وصوب، إلى المواقع التي أختارها زعيم الثورة الريفية حول المعسكرات الإسبانية في «أنوال» وقد أقسم كل من الوافدين على جعل حياته فداء لوطنه، فإما وثبة إلى الأمام، نحو الحرية المنشودة وإما إستشهاد في الميدان بين قرع الطبول وصهيل الخيول!

– مرحى! مرحى! على بركة الله!

بهذه الكلمات كان عبد الكريم وأخوه وعمه وأبن عمه، الذين حملوا عبء القيادة في تلك الظروف العصيبة، يستقبلون القادمين من شيوخ وكهول وشبان، وقد هرعوا خفافًا سراعًا شجعانًا، تلبية للنداء وطلبًا للطعن والنزال!

وأبت المرأة المغربية – شأن كل إمرأة عربية يوم الكريهة والنزول – أن تدع الرجال يستأثرون بالقتال وينفردون في البذل والتضحية، فوفد على معاقل المجاهدين عدد كبير من الحضريات والقرويات والبدويات ينشدن المساهمة في حرب التحرير، ويبغين خوض المعارك، مع بعولهن وإخوتهن وفلذات أكبادهن!

– مرحي، مرحي! على بركة الله!

وجاءت بين النساء صبية في الخامسة عشرة من العمر، بهية الطلعة، واسعة العينين، حادة البصر، جهورية الصوت، تبدو الجرأة في كل كلمة من كلماتها، وكل حركة من حركاتها.

وخاطبت عبد الكريم قائلة:

– جئتك يا زعيم القوم في طلب ثأرين، والسعي إلى هدفين... عندي سيف وبندقية... خذ البندقية لأحد رجالك، فالسيف يكفيني ولن أقاتل إلا به... وعندي هذه الحلى، ورثتها عن أمي رحمها الله، فخذها لبيت المال فبيت المال أحوج إليها مني... وعندىماية وخمسون «دوروس» أقتصدها أبي قبل موته، فخذها أيضًا وضمها إلى الحلى في بيت المال... ورجائي الأخير يا عبد الكريم، أن تترك لي الحرية في طلب الثأر كيفما شئت وأينما أردت... فإن لي غرضين: إسبانيا التي تحاول إغتصاب وطني، وضابطا إسبانيا حاول إغتصاب شرفي!

أصغى القائد المغربي بدهشة ممزوجة بالإعجاب والإكبار، إلى

حديث الفتاة النبيلة، التي جاءته تفدي الوطن بما ملكت يداها، فإنني على تلك العاطفة العربية السامية، ورحب بالصبية أجمل ترحيب:

– لا عدم الريف أمثالك يا أبنتي! ما أسمك؟

– عائشة.

– من أين جئت؟

– من مدينة مليلة...

– وأبنة من أنت؟

– أبنة أبي زيان...

– أبو زيان، صاحب الحانوت بجوار الثكنة الإسبانية؟

– هو بعينه...

– هل مات أبوك؟

– قتلة الإسبان رميًا بالرصاص!

– كيف؟ ولماذا؟

– دعني أقص عليك ما حدث يا عبد الكريم، فأنت اليوم أولى الناس بمعرفة العوامل التي تحملني على طلب النار مرتين، والسعي إلى هدفين في آن واحد، كما قلت لك! لقد أصبحت الآن يتيمة، لا سند لي ولا معين، غير الله رب العالمين!

قصت عائشة على عبد الكريم الخطابي قصتها، وروت له المأساة التي

وقعت لها في مدينة مليلة، حيث كانت تعيش مع أبيها صاحب الحانوت...

كان أبو زيان جالسًا ذات يوم كعادته، يبيع مختلف السلع للعرب والأسبان على السواء، وإذا بأبنته تدخل عليه ممزقة الثياب، محلولة الشعر، خائفة لاهثة. فسألها عن الخبر:

– أبي، لقد كتمت عنك أمر ذلك الضابط الإسباني الذي يلاحقني ويضايقني، ولكنني بلغت اليوم آخر حدود الصبر والجلد، وأخشى أن يلحقني منه مكروه! فقد هاجمني ذلك الوقح، على مسافة يسيرة من الحانوت، وعلى مقربة من ثكنة الجيش، ولو لم أقاوم، ثم أفلت منه مهرولة إلى هنا، لوقع منه ما يلحق بي وبك عاراً لا يمحى. أبي، لنهرب من هنا!..

جعل «أبو زيان» يهدئ روع أبنته، ويلاطفها، ويعيد الطمأنينة إلى نفسها. وعلم منها أن الضابط «كارلوس» الذي يمر بالحانوت في ذهابه وأوبته بين الثكنة والمدينة، هو الرجل الذي تتهمه الفتاة بأنه يحاول الإعتداء عليها، ويواصل إغراءها وإغواءها، بالوعد حيناً وبالوعيد أحياناً، وأنه في ذلك اليوم تطاول عليها بجرأة لا يقدم عليها غير رجل يثق بأنه في مأمن من العقاب، وبعيد عن متناول العدالة!

وكررت الفتاة رجاءها:

– لنهرب يا أبي من هنا!.. فإن المغربي أصبح غريباً في وطنه، وبنات المغرب أصبحن معرضات للأذى في عقر دارهن، من أولئك العلوج الأجلاف!

لكن أبا زيان طبع على جبين أبنته قبلة حارة، وأخذ رأسها بين يديه، وقال وهو يتصنع الهدوء والطمأنينة:

– كلا يا عائشة! لن نهرب، بل أن ذلك الضابط الأثيم هو الذي سيهرب من البلدة، إلى غير عودة!

وفي اليوم التالي، قبل شروق الشمس، كان أبو زيان متربصًا للضابط خلف حانوته الصغير، وقد أمر أبنته بأن تقف متعمدة في طريق الأسباني. فوقع ما كان بالحسبان، وعاود الرجل تهجمه على الفتاة وحاول أن يستدرجها إلى الثكنة، وإذا بصاحب الحانوت يثب من مخبئه ويلقي على المعتدي الأثيم درسًا قاسيًا، فيشبعه ضرباً، ويفهمه أن للأعراض العربية حماة يدفعون عنها الأذى، وحراسًا يحرسونها من عدوان الأرذال اللئام.

لكن الضابط الذي تجرأ على فتاة ضعيفة، جعل يستغيث ويحاول الإفلات من قبضة الرجل القوي، فأسرع لإغاثته لفيف من رفاقه، وأحاط أولئك الرفاق بالأب وأبنته، وتلقت عائشة على رأسها ضربة شديدة أفقدتها الوعي فسقطت على الأرض.

وعندما أفاقت من غشوتها، وجدت نفسها جنبًا إلى جنب مع أبيها وقد أصبح جثة هامدة، مزقها الرصاص وحطمت الأقدام رأسها.!

ترك الإسبانيون الضحيتين على التراب، في بركة من الدماء، وعادوا من حيث أتو آمنين مطمئنين ضاحكين!

وتجمع العرب حول القتيل وأبنته، فحملوا الجثة إلى الحانوت وراحوا يعزون الفتاة راجين لها الصبر والسلوان!

ورفعت عائشة أمرها إلى القيادة الإسبانية فصدت في وجهها الأبواب، وقيل لها: إن الضباط الذين قتلوا أباها كانوا في حالة إندفاع عن النفس، وأنها على ضلال في إعتقادها أن الإسباني لا يحق له أن يقتل العربي دون أن يتعرض للعقاب!

وأدركت الفتاة أن ثأر العربي في بلد يحتله الأجنبي يؤخذ أخذًا، وأن حالة الأفراد كحالة الشعوب، فالأجنبي المغتصب لا يعطي الفرد عدلًا ولا يمنح الشعب حقًا، وإنما كل شيء ينتزع منه إنتزاعًا: فدية القتيل وفدية الوطن!

ولهذا، عولت عائشة المغربية، أبنة أبي زيان صاحب الحانوت في مليلة على الإلتحاق بالمجاهدين في معاقلهم، طلبًا للثأرين ثأر الأب الشهيد وثأر الوطن المستعبد.

وختمت عائشة حديثها قائلة:

– هذه قصتي يا عبد الكريم! فقد حملت معي البندقية والسيف، اللذين كان أبي يخبئهما لليوم العصيب، وحملت ما نملك من حلى ونقود، وجئتك للجهاد في صفوف المجاهدين، والإستشهاد في مواكب المستشهدين!

في الواحد والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٢١، وثب العرب وثبتهم الأولى، وضج القضاء بالتهليل والتكبير، وصمت الآذان صيحات

المجاهدين، المنطلقين على خيولهم، وليس في أيديهم غير البنادق والصوارم، نحو أعشاش المدافع والرشاشات!

وخلد عبد الكريم الخطابي وأبطاله في سجل التاريخ يومًا من أيام العرب المجيدة، هو يوم «أنوال» النير الوضاح!

ففي تلك المعركة الرائعة، التي ظلت مشتعلة الأوار ثلاثة أيام كاملة، فتكت حفنة من رجال المغرب ونسائه بعشرين ألف إسباني مسلحين، ذبحوا ذبح الأنعام، فلم يفلت منهم غير عشرات ألقوا السلاح وطلبوا النجاة بالهرب من الميدان، وحاول ثلاثة آلاف منهم، بقيادة الجنرال «نافارو» أن ينقذوا الموقف ويمحوا العار عن الجيش الإسباني، ولكنهم أرغموا على التسليم فأرسلوا إلى معتقلات الأسرى في الجبال!

وفي تلك المعركة، بين الأسبان المضعضعين المنهزمين، عثرت عائشة المغربية بغريمها «كارلوس» الذي حاول أن يسلبها شرفها، والذي كان سبباً في موت أبيها، فصاحت به:

– سيفك يا أنذل الرجال! فالفتاة المغربية لا تعتدي على أعزل، ولا تقتل من لا سلاح بيده، يدافع به عن نفسه! سيفك!

فار فائر الرجل، لرؤية تلك الصبية الحسناء التي زجرته وأذاقته المهانة في مليلة فوثب عليها والسيف بيده، وأشتبك النصلان في عراك عنيف، ومزق سيف أبي زيان صدر الضابط الأسباني، كما مزق من قبل رصاص الإسبانيين صدر صاحب الحانوت وهو يدافع عن أبنته!

كانت هزيمة الغاصبين في تلك المعركة منكرة كاملة.

عشرون ألفًا قتلوا. وثلاثة آلاف أسروا، فدفعت حكومة أسبانيا خمسين مليوناً لإفتدائهم وغنم العرب ستين مدفعًا، ومئات من مركبات النقل، وأدوات المواصلات، وعشرات الآلاف من البنادق، وما يكفي من المؤن والذخائر لمواصلة حرب التحرير!

وأنتحر القائد العام الجنرال سلفستر في الميدان، وهويري بغينيه تمزق جيشه وذلة بلاده!

وفازت عائشة المغربية بالثأرين وبلغت الهدفين!

ومضى عبد الكريم الخطابي من نصر إلى نصر، راجيًا أن يحقق الله آمال المغرب على يده، أو على يد غيره من بعده إذا شاء، فهو وحده العلي القدير!

رسالة وإمرأة

مــا أكثــر الأبطــال المجهــولين في الثــورات والحروب. وما أجدرهم بالإعجاب والتقدير!

أرسل الأمير عبد الكريم الخطابي في طلب رجل من أبطاله المخلصين الأوفياء – وكان جميع رجال عبد الكريم أبطالاً أوفياء مخلصين – وأختلى به في مركز قيادته، وأسر إليه قائلًا:

– لقد أخترتك اليوم يا قاسم من بين الرفاق المجاهدين، لأعهد إليك بمهمة يتوقف عليها فوزنا في هذه المرحلة من حرب التحرير التي خضنا غمارها معتمدين على الله. فنحن الآن في السنة الرابعة من جهادنا، وقد أنقسمت جيوشنا إلى قسمين: قسم يحارب في هذه الجبهة الشرقية، وقسم يحارب في الجبهة الغربية بقيادة أخي محمد. وهذه رسالة تحوي الكثير من الأسرار، وتبسط الخطة التي قر الرأي على تنفيذها في الجبهتين معًا، وفي وقت واحد. وأنا في حاجة إلى رسول أمين مقدام، يحمل هذه الوثيقة إلى أخي محمد في مركز قيادته بالقرب من شفشاون. فخذها وتوكل على الله. وأعلم أن وقوعها في أيدي الأعداء قد يجد علينا الوبال، ويسبب إراقة دم مغربي نحن به ضنينون، ويفسد علينا خطتنا ويؤخر يوم النصر... أذهب برعاية الله وتوفيقه!

عانق القائد رسوله، الذي تناول من يده الرسالة المخفية في غلاف من الجلد، وخبأها في طيات ثوبه، وقد بلغ به التأثر مبلغه فلم تخرج من فمه غير هذه الكلمات:

– شكراً...! ستصل الرسالة...! ولن تقع في أيدي الإسبانيين مهما تكن المخاطر التي تحف بي!

وأنطلق قاسم مشيعًا بنظرات الأمير المغربي وتمنياته.

كانت ثورة الريف المغربي، التي نشبت في شهر مايو سنة **١٩٢١** للميلاد، الموافقة لسنة **١٩٣٩** للجهرة، قد تحولت شيئًا فشيئًا إلى حرب نظامية حقيقية، وذلك منذ أن مزق عبد الكريم جيش الإسبان تمزيقًا مروعًا في معركة «أنوال» في شهر يوليو من السنة نفسها، ففي تلك المعركة التي أستمرت ثلاثة أيام بلياليها، كتب الفوز لحفنة من المجاهدين المغاربة على عشرين ألف أسباني ذبحوا عن آخرهم، وثلاثة آلاف سلموا أنفسهم مفضلين الأسر على الموت، ولم ينج من ذلك الجيش اللجب غير بضع مئات تسللوا إلى مدينة «مليلة» ليذيعوا فيها خبر الكارثة الماحقة. أما قائد الإسبانيين، الجنرال سلفستر، فقد أنتحر في الميدان حزنًا وغيظًا!

وكانت أسلاب المعركة كافية لتسليح جيش المجاهدين. فقد غنموا ستين مدفعًا، وعشرات الآلاف من البنادق والرشاشات، وكميات عظيمة من معدات القتال والنقل والمواصلات والذخائر. ورتب عبدالكريم جيشه منذ ذلك اليوم كتائب من المشاة والفرسان والمدفعية، وراح ينازل

خصومه حينما وجدهم، بل يطاردهم من موقع إلى موقع، وينتزع منهم أرض الوطن المغربي رقعة بعد رقعة، ومدينة بعد أخرى!

في صيف سنة ١٩٢٤ عول القائد المجاهد على توجيه ضربة قاضية إلى العدو، الذي تلقى المدد من أسبانيا، وأعد العدة لهجوم مضاد، على أمل إسترجاع ما فقده الإسبانيون في السنوات الثلاث السابقة. ولهذا، فقد عمد عبد الكريم إلى إنشاء جبهتين: جبهة شرقية يقودها بنفسه، وجبهة غربية عهد بقيادتها إلى أخيه وساعده الأيمن، وقد عرفت المعارك التي أشتبك فيها المغاربة بالإسبانيين في الجبهة الأولى، طوال الصيف وشطرًا من الخريف، بحرب «سيدي مسعود» وعرفت معارك الجبهة الغربية، بحرب «شفشاون» أو على طريقة الإختصار في لفظ أسماء البلدان عند المغاربة، بمعركة «الشاون»..

تأهب كل من القائد العام وأخيه لبدء الهجوم في آن واحد. فكان على الأمير محمد، في الجبهة الغربية، أن يستولي على بلدة «شفشاون» ويطرد الإسبانيين نحو الساحل. وعلى الأمير عبد الكريم أن يشدد الخناق على جزء من الجيش الإسباني المطوق في الجبهة الشرقية، وأن يمنع الجزء الآخر من نجدة الحامية المرابطة في «شفشاون» فيخف الضغط عن أخيه...

وحمل المخبرون المنبثون في جميع الأنحاء إلى عبد الكريم أنباء هامة عن حركات الإسبانيين، وعن الإمدادات المغربية المرتقبة، ورسم الأمير خطته النهائية، ودون كل ذلك في خطاب عهد إلى رسوله «قاسم»

بحملة إلى أخيه. وعلى مضمون ذلك الخطاب كان يتوقف مصير المعركة القادمة، أو على الأقل بعض مصيرها.

بينما كان الأمير محمد ذات يوم يتشاور مع أقرب معاونيه في توزيع قواته، وتعيين مهمة كل كتيبة من كتائبه، إذا برجاله يسوقون إليه إمرأة بدوية في حالة يرثى لها من الإعياء، مهلهلة الثياب فاغرة العينين، وقد تجمد الدم على فمها وخديها، وجميع الدلائل تدل على أنها ولدت خرساء أو فقدت النطق على أثر حادث وقع لها...

الغربية، وإنسحب الأسبانيون من بلدة «شفشان» فدخلتها القوات العربية، وسط الأهازيج وقرع الطبول، تخفق قوتها الإعلام ويضحك لها الجو الصافي. وتقهقر الأسبانيون إلى «تطوان» و«سبتة» و«العرائش» حيث إعتصمت فلولهم مذعورة مرتبكة. وجمع المجاهدون غنائم المعارك وأسلابها، وإستعدوا لوثبة أخرى إلى الأمام، لتطويق العدو على طول الساحل والقضاء عليه...

لكن العدو المرتجف الخائف، راح يفكر بعد تلك السلسلة من الكوارث في طريقة يتجنب بها الهلاك، فحاول التخلص من خصمه بإغتياله ولكن المؤامرة فشلت. فعمد إلى طلب النجدة من دولة أخرى! فإن أسبانيا في محنتها قررت أن تبسط يدها لجارتها فرنسا، لكي تمدها بالرجال والعتاد، فتتعاون دولتان كبيرتان، تملكان الجيوش والأساطيل والطائرات، في القضاء على شعب لا يتجاوز عدده مليونًا واحدًا، ولا يطلب غير قسطه من الحياة، ومكانه تحت الشمس، ونصيبه من الحرية!.

بعد معركة «شفشاون»، أمضي الأمير محمد إلى أخيه الأمير عبد الكريم بما يساوره من دهشة وإستغراب، بشأن المرأة التي حملت إليه الرسالة في مركز قيادته. ولم يكن عبد الكريم قد عرف شيئًا بعد عن رسوله «قاسم»، فتولاه القلق، وجعل القائدان الأخوان يستفهمان ويستقصيان الأخبار، فتمكنا في النهاية من معرفة حقيقة ما حدث، أو بعض الحقيقة..

فقد عثرت فصيلة من الفرسان المغاربة على جثة «قاسم» مشوهة تطرق إليها البلاء، خلف أكمة وعرة، على مسافة خمسين كيلومترًا من مدينة «شفشاون». وقال أسير من الأسبانيين: أنه وبعض رفاته قتلوا رجلًا عربيًا في ذلك المكان. فإستنتج الأميران من ذلك أن إمراة بدوية كانت على مقربة من الأكمة، فرأت الأسبانيين يطلقون الرصاص على الرجل وأسرعت لنجدته، وإن قاسمًا سلمها الرسالة وطلب منها أن تحملها إلى مقر القيادة فتعهدت له بذلك وتركته ميتًا أو مشرفًا على الموت، ثم واصلت السير فداهمها الأسبانيون أيضًا وأطلقوا الرصاص عليها فأصيبت في عنقها وفمها، وكانت الإصابة سببًا لفقدانها النطق، فأصبحت خرساء ولكنها تجلدت، وتحملت آلامها، وواصلت السير وسلمت الأمانة إلى صاحبها، ولكنها دفعت حياتها ثمنًا لذلك الوفاء المغربي، ولتلك الشهامة العربية!

هذه قصة بطولة إمرأة مجهولة، في حرب الريف المغربي، وما أكثر الأبطال المجهولين في الثورات والحروب...

لقد وصلت رسالة عبد الكريم إلى أخيه بفضل تلك المرأة التي لا يعرف إسمها أحد!

الفهرس